الرسالةُ الخامسةُ

عبدُ الرحمٰنِ بنُ يحيى المعلِّميُّ وكتابُهُ: «رفعُ الاشتباهْ، عن معنى العبادةِ والإلٰهْ، وتحقيقُ معنى التوحيدِ والشركِ باللّٰه»(١)

(١) أصلُها: مقدِّمةُ تحقيق كتاب: «العبادة» للمعلِّميِّ اليَمَاني.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ وحدَهُ، والصلاةُ والسلامُ على مَن لا نبيَّ بعدَهُ، **أمَّا بعدُ**:

فهذا كتابُ «**العبادةِ**» للشيخِ عبدِ الرحمٰنِ بنِ يحيى المعلِّميِّ رَحِمَهُ اللهُ، وقد قام الشيخُ الشَّبْراويُّ ابنُ أبي المَعَاطِي المِصْريُّ على إخراجِ هذا الكتابِ، فترجَمَ لصاحبِ الكتابِ ترجمةً جميلةً، ذكَرَ فيها كثيرًا مما يتعلَّقُ بالمؤلِّفِ، ثم قام بعزوِ الأحاديثِ والنقولاتِ إلى مصادرِها، فجزاه اللهُ خيرًا، وبارَكَ فيه.

ولعلِّي أتحدَّثُ هنا عن الكاتبِ والكتابِ:

فأمَّا الكاتِبُ: فهو مِن مشاهيرِ العلماءِ في هذا العصرِ، وقد اشتهَرَ بتحقيقاتِهِ ومؤلَّفاتِه، وكان مبرِّزًا في علومٍ متعدِّدةٍ مِن علومِ الشريعةِ واللُّغةِ، وخاصَّةً في علمي الحديثِ والعقائدِ، وفيهما ألَّف أكبَرَ كُتُبِه؛ كتابَ «**التنكيلْ، بما في تأنيبِ الكَوْثَريِّ مِن الأباطيلْ**»؛ وهذا في علم الحديثِ وصناعتِه، وإن كان مشتمِلًا على أقسامٍ أخرى؛ فهناك مباحثُ تتعلَّقُ بالفقهيَّاتِ، وأخرى في العقائد.

وأمَّا كتابُ «**العبادةِ**»، وهو كتابُنا هذا: فسيأتي إنْ شاء اللهُ تعالى الحديثُ عنه.

وأمَّا ما يتعلَّقُ بعلمِهِ بالحديثِ، فقد اشتهَرَ بتمكُّنِهِ في هذا العلمِ وصناعتِهِ؛ كعلمِ العِلَلِ، والجرحِ والتعديلِ، ومناهجِ المحدِّثين، فإنَّ له كلامًا كثيرًا في هذا البابِ، وقد قام أحدُ الإخوةِ بجمعِ كلامِهِ فيما يتعلَّقُ بقواعدِ الصناعةِ الحديثيَّةِ، والكلامِ على الرجالِ، وقام آخَرُ بجمعِ كلامِهِ في القواعدِ الحديثيَّةِ فقطْ؛ كما كتَبَ عددٌ مِن الباحِثِينَ رسائلَ علميَّةً في جهودِهِ في علمِ الحديث.

ولعلَّه ـ واللهُ تعالى أعلم ـ مِن أمكَنِ علماءِ الحديثِ في هذا العصرِ،

ومِن الأشياءِ المهمَّةِ التي نبَّه عليها: التفريقُ بين مَنهَجِ المتقدِّمين، ومَنهَجِ المتأخِّرين في علمِ الحديث.

فقد قال في مقدِّمتِه لكتابِ «الفوائدِ المجموعةِ» للشَّوْكانيِّ (ص٨)، مبيِّنًا تساهُلَ كثيرٍ مِن المتأخِّرينَ في حكمِهم على الأحاديثِ: «إنَّني عندَما أَقرِنُ نظري بنظرِ المتأخِّرينَ، أَجِدُني أرى كثيرًا منهم متساهِلِين، وقد يدُلُّ ذلك على أنَّ عندي تشدُّدًا لا أُوافِقُ عليه، غيرَ أنِّي مع هذا كلِّه: رأيتُ أن أُبدِيَ ما ظهَرَ لي ناصحًا لمَن وقَفَ عليه مِن أهلِ العلمِ؛ أن يحقِّقَ النظرَ، ولا سيَّما مَن ظَفِرَ بما لم أَظفَرْ به مِن الكتبِ التي مرَّت الإشارةُ إليها». اهـ.

وقال أيضًا في «الأنوارِ الكاشفةِ» (ص٢٩): «وتحسينُ المتأخِّرين فيه نظرٌ». اهـ.

وقال أيضًا في كتاب «العبادةِ» (ص٢١٥): «ومنهم: مَن يَحْكي عن بعضِ المتأخِّرينَ؛ كالسُّبْكيِّ، وابنِ حَجرٍ، وابنِ الهُمَامِ، والسُّيُوطيِّ، ونحوِهم: أنَّهم صحَّحوا ذلك الحديثَ أو الأثرَ أو حسَّنوه، ويكونُ جَهَابذةُ العلمِ مِن السلفِ قد ضعَّفوا ذلك الحديثَ أو حكَموا بوضعِه، وهم أجَلُّ وأكمَلُ مِن المتأخِّرِين، وإن كان بعضُ المتأخِّرين أُولي علمٍ وفضلٍ وتبحُّرٍ، ولكنَّنا رأيناهم يَتساهَلُونَ في التصحيحِ والتحسينِ، ويُراعُونَ فيه بعضَ أصولِ الفنِّ، ويغفُلُونَ عمَّا يعارِضُها مِن الأصولِ الأخرى»(١).

وفوق ذلك: أنَّ السلفَ كانوا أبعَدَ عن الهوى؛ ومِن هنا قال ابنُ الصلاحِ: «إنَّ التصحيحَ والتحسينَ قد انسَدَّ ولم يَبْقَ فيهما إلا النقلُ عن السلفِ، ولكنَّه يُعِينُ على ما تُريدُه، وهو وجوبُ الاحتياطِ فيما يصحِّحُهُ المتأخِّرونَ أو يحسِّنونه، وهكذا جماعةٌ مِن المتقدِّمِينَ لا يُغترُّ بتصحيحِهم؛

(١) كعِلْمِ العِلَلِ؛ فيصحِّحونَ الحديثَ أو يحسِّنونَهُ بظاهِرِ الإسناد، ولا يلتفِتونَ إلى ما فيه مِن عِلَلٍ خفيَّةٍ، وأحيانًا ظاهرة، وأيضًا: علمُ الجرحِ والتعديلِ؛ لا يُعطُونَهُ حقَّه مِن التوسُّعِ وتتبُّعِ حديث الراوي.

كالحاكِم، وابنِ حِبَّانَ؛ بل والتِّرمِذيِّ[١]، ولا سيَّما تحسينُهُ، وهؤلاءِ أئمَّةٌ كبارٌ...». اهـ.

قال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في دفاعِه عن المعلِّميِّ، وكان سببُ ذلك أنَّ أحدَ أهلِ العلمِ قد رَدَّ على رسالتِهِ في تأخيرِ المَقَام، فقال ضِمْنَ دفاعِهِ عنه: «وأمَّا اللوازمُ القَبيحةُ التي زعَمَ صاحبُ النقضِ أنْ لا مَفرَّ للمعلِّميِّ منها، ولا مَحِيدَ عنها، فلا نرى أنَّها تَلزَمُ المعلِّميَّ؛ لا لمجرَّدِ حسنِ الظنِّ به فقطْ؛ باعتبارِه عالِمًا خدَمَ الأحاديثَ النبويَّةَ وما يتعلَّقُ بها؛ بل لأمرَيْنِ...»[٢].

قلتُ: ثم ذكَرَ هذَيْنِ الأمرَيْنِ، ثم ذكَرَ بعدَ ذلك أمورًا أخرى، رَدَّ بها على هذا الشخصِ الذي انتقَدَ المعلِّميَّ، فقام الشيخُ بالجوابِ عنها.

وقال الشيخُ محمَّد عبد الرَّزَّاق حَمْزة في تعليقِهِ على كتابِ «القائدْ إلى تصحيحِ العقائدْ» للمعلِّميِّ[٣]: «فرَغْتُ مِن قراءةِ كتابِ «القائدْ إلى تصحيحِ العقائدْ» للعلَّامةِ المحقِّقِ الشيخِ عبدِ الرحمٰنِ بنِ يحيى المعلِّميِّ العتميِّ، فإذا هو كتابٌ مِن أجودِ ما كُتِبَ في بابِهِ في مناقَشةِ المتكلِّمِينَ والمتفلسِفةِ الذين انحرَفوا بتطرُّفِهم وتعمُّقِهم في النَّظَرِ والأقيسةِ والمباحِثِ، حتى خرَجوا عن صراطِ اللهِ المستقيم، الذي سار عليه الذين أنعَمَ اللهُ عليهم مِن النبيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشهداءِ والصالِحِين؛ مِن إثباتِ صفاتِ الكمالِ للهِ تعالى: مِن علوِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على خَلْقِهِ علوًّا حقيقيًّا يشارُ إليه في السماءِ عند الدعاءِ إشارةً حقيقةً، وأنَّ القرآنَ كلامُهُ حَقًّا، حروفَهُ ومعانِيَهُ، كيفما قرأ أو كتَبَ، وأنَّ

(١) **قلتُ**: أمَّا الترمِذيُّ، فهو إمامٌ في علم الحديثِ والعِلَل، وقد بيَّن كثيرًا مِن عِلَلِ الأحاديثِ في كتابِه: «الجامع»، و«العِلَلَ الكبير»، وإنما الكلامُ في تحسينِهِ، ويجابُ عن ذلك: أنَّ حكمَهُ على الحديثِ بأنه حسَن، لا يعني ما اصطلَحَ عليه المتأخِّرون، وهو روايةُ الثقةِ الذي خَفَّ ضبطُه، وإنما يُقصَدُ به الحديثُ الذي لم يَجمَعْ شروطَ القَبُول؛ كما أنه ليس بشديدِ الضعف؛ فالحسَنُ عنده هو الحديثُ الذي لم يثبُتْ؛ ولذا يَجمَعُ أحيانًا بين التحسينِ والتضعيف، وليس هذا مكانَ بيانِ هذه المسألة.

(٢) «فتاوى ورسائل الشيخ محمَّد بن إبراهيم» (٥/ ١٢٠ وما بعدها).

(٣) وهو القسمُ الآخَرُ من «التنكيل».

الإيمانَ يزيدُ وينقُصُ حقيقةً، يزيدُ بالطاعاتِ، وينقُصُ بالمعاصي، وأنَّ الأعمالَ جزءٌ مِن الإيمانِ لا يتحقَّقُ الإيمانُ إلا بالتصديقِ والقولِ والعملِ.

حقَّق العلَّامةُ المؤلِّفُ هذه المطالبَ بالأدلَّةِ الفِطْريَّةِ والنقليَّةِ مِن الكتابِ والسُّنَّةِ على طريقةِ السلفِ الصالحِ، مِن الصحابةِ وأكابرِ التابعِين، وناقَشَ مَن خالَفَ ذلك مِن الفلاسفةِ؛ كابنِ سِينا، ورؤساءِ علمِ الكلامِ كالرازيِّ، والغَزَاليِّ(١)، والعَضُدِ، والسَّعْدِ، فأثبَتَ بذلك ما قرَّره شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ في كتبِهِ المحقَّقةِ الشافيةِ الكافيةِ، بأوضحِ حُجَّةٍ، وأقوى بُرْهانٍ: أنَّ طريقةَ السلفِ في الإيمانِ بصفاتِ اللهِ تعالى أعلَمُ وأحكَمُ وأسلَمُ، وأنَّ طريقةَ الخلفِ مِن فلاسفةٍ ومتكلِّمِين أجهَلُ وأظلَمُ وأودَى وأهلَكُ.

قرَأْتُ الكتابَ فأُعجِبتُ به أيَّما إعجابٍ؛ لصبرِ العلَّامةِ على معاناةِ مطالَعةِ نظريَّاتِ المتكلِّمِينَ خصوصًا مِن جاء منهم بعد مَن ناقَشَهَمُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ وتلميذُه الإمامُ ابنُ القيِّمِ؛ كالعَضُدِ، والسَّعْدِ، لردِّه عليهم بالأسلوبِ الفِطْريِّ والنقولِ الشرعيَّةِ التي يؤمِنُ بها كلُّ مَن لم تفسُدْ عقليَّتُهُ بخَيَالاتِ الفلاسفةِ والمتكلِّمِين؛ فسَدَّ بذلك فراغًا كان على كلِّ سُنِّيٍّ سلفيٍّ سَدُّهُ بعد شيخَي الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ وابنِ القَيِّمِ رحمهما اللهُ تعالى، وأدَّى عنَّا دَيْنًا كنَّا مطالَبِينَ بقضائِه؛ فجزاه اللهُ عن الإسلامِ والمسلِمِين خيرَ الجزاءِ، وحشَرَنا وإيَّاهُ في زُمْرةِ الذين أنعَمَ اللهُ عليهم مِن النبيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشهداءِ والصالِحِينَ وحَسُنَ أولئك رفيقًا، آمين».

وقال الشيخُ حُمُودُ بنُ عبدِ اللهِ التُّوَيْجِريُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وكنتُ في زيارةٍ له، وكان عنده الشيخُ فهدُ بنُ حمين الفهد رَحِمَهُ اللهُ، وجرى ذكرُ المعلِّميِّ، فقام الشيخُ حمودٌ وأتى بكتابِ «التنكيلِ»، وقرَأَ أوَّلَ مقدِّمةِ الكتابِ التي كتَبَها الشيخُ ناصرُ الدينِ الألبانيُّ رَحِمَهُ اللهُ، حتى وصَلَ إلى قولِهِ: «بأسلوبٍ علميٍّ متينٍ...»،

---

(١) يقال له: «الغَزَّاليُّ» بالتشديدِ نسبةً إلى الغَزَّالِ، وهو صانعُ الغَزْلِ، وقيل: هو بالتخفيفِ نسبةً إلى «غَزَالَة» قريةٍ بطُوسَ. ينظر: «اللباب، في تهذيب الأنساب» (٢/ ٣٧٩)، و«لب اللباب، في تحريرالأنساب» (ص١٨٦).

إلى أن قال: «... على صَبْرٍ مِن البحثِ والتحقيقِ، كادَ أن يبلُغَ الغايةَ، إلا أن يكونَ بلَغَها...».اهـ.

قال الشيخُ حُمُودٌ معلِّقًا: «بل بلَغَها».

وقال أيضًا: «دخَلْتُ في مكتبةِ الحرَمِ المَكِّيِّ، فسألتُهُ عن أحدِ الكتبِ، فقام مسرِعًا وأتى به، ثم قال عن المعلِّميِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما عرَفْناهُ إلا بعد أن تُوُفِّيَ»، أو كلامًا نحوَ هذا.

وممَّن أثنى عليه الشيخُ حمَّادٌ الأنصاريُّ، وكان مِن تلاميذِهِ؛ فهو يَعرِفُهُ عن قربٍ؛ فقد قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «شيخي عبدُ الرحمٰنِ المعلِّميُّ ـ رحمة الله عليه ـ كان كثيرَ البحثِ جِدًّا، يَبحَثُ في أكثَرَ مِن كتابٍ في وقتٍ واحدٍ، وكنتُ أجالِسُهُ في مكتبةِ الحرمَيْن، وكان يُعْطيني كتبًا، فيقولُ: «ابحَثْ عن كذا، فما أجِدُه، فأعطيه إيَّاها، فيقولُ لي: «هذا هو؛ أين أنتَ عنه؟!»؛ هذا في سنةِ (١٣٦٧هـ)؛ **والسببُ في هذا**: عدَمُ الانتباهِ والسرعةُ»[(١)].

وقال أيضًا: «المعلِّميُّ رجلٌ محدِّثٌ عالِمٌ، وهو شيخي»[(٢)].

وقال أيضًا: «ليست عندي إجازةٌ في الحديثِ مِن الشيخِ المعلِّميِّ، إنَّما عندي إجازةٌ مِن مشايخِهِ الهُنُودِ، والمعلِّميُّ شيخي، كنتُ معه حتى مات»[(٣)].

وقد طلَبَ الشيخُ عبدُ العزيزِ بنُ بازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: أنْ يتولَّى تصحيحَ كتابِ «فتح الباري»، وقد جرى ذلك مرتَيْن، وقد يكون أكثَرَ؛ ولكنَّ هذا ما وقَفْتُ عليه[(٤)].

وأمَّا ما يتعلَّقُ بالكتابِ: فاسمُهُ يُترجِمُ عن مضمونِهِ ومحتواه؛ فاسمُهُ: «رفعُ الاشتباهْ، عن معنى العبادةِ والإلٰهْ، وتحقيقُ معنى التوحيدِ والشركِ بالله»؛ فهو في بيانِ حقيقةِ التوحيدِ، وإخلاصِ العبادةِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ وحدَه، وما يضادُّهُ مِن الشركِ بجميعِ صورِهِ وأنواعِه، وقد أطال المصنِّفُ في بيانِ هذا الأمرِ، خاصَّةً

---

(١) «المجموع في ترجمة المحدِّث الشيخ حمَّاد الأنصاري» (ص٥٩٢).
(٢) السابق (ص٥٩٣).
(٣) السابق (ص٦٢٢).
(٤) ينظر: «الرسائل المتبادَلة بين ابنِ باز والعُلَماء» (ص١٩٥ ـ ١٩٧).

في بعضِ مسائلِه، فأجاد وأفادْ، وحقَّق المرادْ، فرحمه الله تعالى رحمةً واسعةً.

وسأذكُرُ هنا بمشيئةِ اللهِ تعالى بعضَ ما يتعلَّقُ بهذه المسألةِ الجليلةِ؛ لأنَّ علمَها فرضٌ؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف: ٨٦].

وفي «صحيح مسلم» (٢٦) مِن حديثِ الوليدِ بنِ مسلِم، عن حُمْرانَ، عن عثمانَ بنِ عَفَّانَ رضي الله عنه؛ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، دَخَلَ الجنَّةَ**».

وقد بيَّن لنا ربُّنا عز وجل هذه المسألةَ غايةَ البيانِ في كتابِهِ العظيمْ، وفيما أوحاهُ إلى رسولِهِ الكريمِ عليه أفضلُ الصلاةِ والتسليمْ.

فأقولُ ـ وباللهِ تعالى التوفيقُ ـ: إنَّ مَن تدبَّر نصوصَ القرآنِ والسُّنَّةِ، تبيَّن له هذا الأمرُ غايةَ البيانِ؛ فنصوصُ الوحيِ كلُّها شرحٌ وتوضيحٌ لهذه المسألةِ العظيمةِ؛ وهذا مِن الناحيةِ النظريَّة.

وإذا نظَرَ العبدُ أيضًا إلى العباداتِ والتكاليفِ التي كُلِّف بها في يومِهِ وليلتِه، اتضَحَ له هذا الأمرُ غايةَ الاتضاح؛ وهذا مِن الناحيةِ العمليَّة:

الأمرُ الأوَّلُ: بيانُ الناحيةِ النظريَّة:

أولًا: إخلاصُ العبادةِ للهِ وحدَهُ: فإنَّ اللهَ عز وجل لم يأمُرْ بعبادتِهِ فحسبُ؛ بل أمَرَ ألَّا يعبُدَ العبدُ أحدًا إلا اللهَ، وأن يُخلِصَ لربِّه غايةَ الإخلاصِ في جميعِ أقوالِهِ وأفعالِهِ:

قال تعالى في أوَّلِ وأعظمِ سُوَرِ القرآنِ، وهي سورةُ الفاتحةِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]؛ أي: لا نعبُدُ إلا أنتَ؛ أي: إيَّاكَ وحدَك يا ربَّنا نوحِّدُ ونخافُ ونرجو؛ لا سواك، ولا نَستعينُ إلا بك، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ

﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر: ٢]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤﴾ [الزمر: ١٤].

وقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]؛ أي: باتِّقائكم ربَّكم بإخلاصِ العملِ إليه؛ يُرفعُ إليه منكم العمَلُ الصالحُ الخالصُ له، مع الإيمان.

يقولُ تعالى: لن يَصِلَ إلى اللهِ لحومُ بُدْنِكُمْ ولا دماؤُها، ولكن يَنالُهُ اتِّقاؤكم إيَّاهُ إنِ اتَّقيتُمُوهُ فيها، فأرَدتُّم بها وجهَهُ، وعَمِلتم فيها بما ندَبكم إليه وأمَرَكم به في أمرِها، وعظَّمتم بها حُرُماتِه.

وقد عرَفَ المشركونَ هذه الحقيقةَ؛ فقال تعالى عنهم ـ وقد أقرَّهم على قولِهم هذا ـ: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠].

وفي «صحيح مسلم» (٢٥٦٤) مِن حديثِ أسامةَ ـ وهو ابنُ زيدٍ ـ أنَّه سَمِعَ أبا سعيدٍ مولى عبدِ اللهِ بنِ عامرٍ يقولُ: سَمِعتُ أبا هريرةَ رضي الله عنه يقولُ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ»**.

وفي رِوايةٍ عندَ مسلمٍ، مِن حديثِ يَزيدَ الأصَمِّ، عن أبي هريرةَ رضي الله عنه: **«إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»**.

وتأمَّلْ «سورةَ الجنِّ»؛ فقد ذكَرَ اللهُ تعالى عن الجنِّ؛ أنَّهم عندَما سَمِعوا القرآنَ، قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن: ١، ٢]؛ لأنَّ القرآنَ يدعو إلى التوحيدِ والإخلاصِ، ثم إنَّهم نزَّهوا اللهَ تعالى بعد ذلك عن اتِّخاذِ الصاحبةِ والولَدِ؛ قال تعالى حكايةً عنهم: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن: ٣].

ثم أخبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنهم: أنَّ الاستعاذةَ فيما لا يَقدِرُ عليه إلا اللهُ، لا تكونُ إلا باللهِ؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦].

ثم ذكَرَ اللهُ عنهم إيمانَهم بالبعثِ، وأنَّهم اختلَفُوا فيما بينَهم فيما يتعلَّقُ بالدِّينِ، وتفرَّقوا طرائقَ قِددًا وأهواءً شتَّى؛ وأنَّه لا ينجو أحدٌ منهم مِن عذابِ اللهِ إلا مَن أسلَمَ وجهَهُ للهِ تعالى؛ قال تعالى مخبرًا عن قِيلِهِمْ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾ [الجن: ١١، ١٢]:

يقولُ: وأنَّا كنَّا أهواءً مختلِفةً، وفِرَقًا شتَّى، مِنَّا المؤمِنُ، ومِنَّا الكافرُ، وأنَّا علِمْنا أنْ لن نُعجزَ اللهَ في الأرضِ إن أرادَ بنا سوءًا؛ ولن نُعجِزَهُ هَرَبًا إن طلَبَنا؛ فنحن مندرِجون في قَيُّوميَّتِهِ على خَلْقِه، تحت قهرِهِ وقدرتِه.

ثم ذكَرَ اللهُ ﷻ بعد ذلك إخلاصَ العبادةِ له، ومِن ذلك الدعاءُ، ثم أمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أن يقولَ للناسِ: «**إنَّه لا يدعو إلا ربَّه ﷻ، ولا يُشْرِكُ به أحدًا، وإنَّه لا يَملِكُ ضَرًّا ولا رَشَدًا، وإنَّه لن يُجيرَهُ أحدٌ مِن اللهِ، ولن يَجِدَ مِن دونِهِ ملتحَدًا؛ أي: نصيرًا ومَلْجأً**»(١).

ثانيًا: وتأسيسًا على ما تقدَّم، تَجِدُ في الكتابِ والسُّنَّةِ أنَّ الأعمالَ تأتي دائمًا مقيَّدةً بالإخلاصِ للهِ وحدَهُ على سبيلِ التفصيلِ، وأمَّا الذي تقدَّم في النقطةِ الأولى، فهو على سبيلِ الإجمالِ، وهذا يكرَّرُ كثيرًا حتى تَظهَرَ المَحجَّة، وتُقدَّمَ الحُجَّة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٠، ٢٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨]، إلى غيرِ ذلك مِن الآيات.

ثالثًا: أنَّ ممَّا يوضِّحُ هذا ويبيِّنُه زيادةً على ما تقدَّم: التذكيرَ به ومدارستَهُ بين حِينٍ وآخَرَ، وليس في وقتٍ دون وقتٍ؛ قال اللهُ ﷻ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ

---

(١) سيأتي قريبًا ـ إن شاء الله ـ ذكرُ الآياتِ التي تحدَّثَتْ عن ذلك مِن سورةِ الجِنّ.

إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ [محمد: ١٩].

ووجهُ الدَّلَالةِ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ: أنَّها في سورةٍ مدنيَّةٍ، وهي «سورةُ محمدٍ ﷺ»؛ فعلى هذا تكونُ بعد مُدَّةٍ طويلةٍ مِن بَعْثتِهِ ﷺ، وفي أقلِّ الأحوالِ بعد ثلاثَ عَشْرةَ سنةً، ومع ذلك كلِّه يأمُرُه ﷻ أن يَعلَمَ بأنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلا اللهُ تعالى؛ مع أنَّه ﷺ لم يُبعَثْ إلا بذلك، ولم يَدْعُ الناسَ إلا لهذا الأمرِ.

ولذا كان ﷺ وهو في سِيَاقِ الموتِ يدعو الناسَ إلى توحيدِ اللهِ وإفرادِهِ بالعبادةِ؛ فقال كما في «الصحيحين»(١): «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليَهُودِ والنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ!**».

وفي روايةٍ عند البخاريِّ (١٣٤١): أنَّه قال ذلك لمَّا اشتكى، وعندَ مسلمٍ (٥٢٨): أنَّ ذلك كان في مرضِهِ ﷺ.

بل في «صحيح مسلم»: أنَّه قال ذلك قبل وفاتِهِ بخمسٍ؛ فقد أخرَجَ مسلمٌ (٥٣٢) مِن طريقِ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ اللهِ؛ حدَّثني جُنْدُبٌ، قال: سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ قبل أن يموتَ بخمسٍ يقولُ: «**أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ؛ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ؛ إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**».

بل قال ذلك وهو في سِيَاقِ المَوْتِ عندَما نزَلَ به؛ كما في «صحيحِ البخاريِّ»، و«صحيح مسلم» مِن طريقِ ابنِ شِهَابٍ، عن عُبَيْدِ اللهِ، عن عبدِ اللهِ؛ أنَّ عائشةَ وعبدَ اللهِ بنَ عبَّاسٍ قالا: لَمَّا نُزِلَ(٢) برسولِ اللهِ ﷺ، طَفِقَ يطرَحُ

---

(١) البخاري (٤٣٥ و٤٣٦)، ومسلم (٥٣١)؛ مِن حديث عائشة وابن عبَّاس.

(٢) قال النوويُّ في «شرح مسلم» (٥/ ١٢): «قولُه: «لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ»؛ هكذا ضبطناه: «نُزِلَ» بضمِّ النونِ، وكسرِ الزاي، وفي أكثرِ الأصول: «نزَلَتْ»، وقال البدرُ العَيْنيُّ في «عمدة القاري» (٤/ ١٩٣): «قولُهُ: «لَمَّا نَزَلَ» على صيغةِ المعلوم في روايةِ أبي ذرٍّ، وفاعلُهُ محذوف؛ أي: لما نزَلَ الموتُ، وفي روايةِ غيرِهِ: بضَمِّ النونِ، وكسرِ الزاي؛ على صيغةِ المجهول». وينظر: «الكواكب الدراري» (٤/ ٩٦)، و«إرشاد الساري» للقسطلاني (١/ ٤٣٥)، (٨/ ٤٣٢).

خَمِيصةً له على وجهِهِ، فإذا اغتمَّ كشفَها، فقال ـ وهو كذلك: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ!**»؛ يحذِّرُ مثلَ ما صنعُوا[(١)].

كلُّ هذا كان تذكيرًا منه ﷺ لأمَّتِهِ بإفرادِ اللهِ بالعبادةِ، وتحذيرًا لهم مِن الوقوعِ في الشركِ؛ ولذا ينبغي على المسلمِ ألَّا ينسى هذا الأمرَ، وأن يتذكَّرَهُ دائمًا، كما ينبغي على الدعاةِ أن يتعاهَدوا الناسَ بالتذكيرِ والتحذيرِ مِن الشركِ؛ وبهذا يَعرِفُ الناسُ التوحيدَ، وحقيقةَ العبادةِ، ويَبتعِدوا عن الشركِ؛ ولذا كان بعضُ أهلِ العلمِ يَسأَلُ غيرَهُ عن هذه المسائلِ؛ ليس مِن بابِ أنَّه لا يَعرِفُ ذلك، وإنَّما مِن بابِ التذكيرِ والمذاكَرةِ.

ودليلُ ذلك: ما جاء في «صحيحِ البخاريِّ» معلَّقًا عن معاذِ بنِ جبلٍ؛ أنَّه قال: «**اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ سَاعَةً**»[(٢)].

وبهذا تحصُلُ الاستقامةُ على الدِّينِ، التي أمَرَ اللهُ تعالى بها رسولَهُ ﷺ في مثلِ قولِهِ تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود: ١١٢].

وفي «صحيحِ مسلمٍ» (٣٨) مِن حديثِ عُرْوةَ بنِ الزُّبَيرِ، عن سُفْيانَ بنِ عبدِ اللهِ؛ قال: قلتُ: «يا رسولَ اللهِ؛ قُلْ لي في الإسلامِ قولًا لا أسألُ عنه أحدًا بعدَك، قال: «**قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ**»؛ وهذا مِن الأسبابِ التي بها يكونُ العبدُ مستقيمًا على التوحيدِ إلى المماتِ.

رابعًا: وتحقيقًا لِمَا تقدَّم مِن إفرادِ اللهِ ﷻ بالعبادةِ وتحقيقًا للتوحيدِ، حذَّرَنا ربُّنا مِن الشركِ غايةَ التحذيرِ؛ فقال تعالى: ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

وذكَرَ تعالى مخاطِبًا أنبياءَهُ ورسلَهُ الكِرامَ: أنَّهم لو أشركوا، فستحبَطُ أعمالُهم، ويكونونَ مِن الخاسِرين، وقد أعاذهم اللهُ مِن ذلك؛ فعصَمَهم مِن

---

(١) ينظر: التخريج السابق في البخاريِّ ومسلِم.

(٢) «صحيح البخاري» (١/ ١١).

الوقوعِ في الشركِ، ولكن في هذا تحذيرٌ للناسِ كافَّةً، وأنَّ الإنسانَ مهما بلَغ مِن المكانةِ، فإنَّه لا يَنفَعُهُ ذلك عند اللهِ تعالى إن وقَعَ في الشركِ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: ١٠٥، ١٠٦].

وأخرَجَ البخاريُّ (١٢٣٨)، ومسلمٌ (٩٢)؛ كلاهما مِن طريقِ الأعمشِ، عن شَقِيقٍ، عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ ﵁؛ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، دَخَلَ النَّارَ**».

وأخرَجَ مسلمٌ (٩٣)؛ مِن طريقِ الأعمشِ، عن أبي سفيانَ، عن جابرٍ؛ قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ، فقال: «يا رسولَ اللهِ؛ ما المُوجِبتانِ؟»، فقال: «**مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، دَخَلَ النَّارَ**».

وأخرجه أيضًا مِن طريقِ أبي الزُّبَيْرِ، عن جابرٍ، ولفظُهُ: «**مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ، دَخَلَ النَّارَ**».

وقد وقَعَ منه ﷺ التغليظُ حتى في الأمورِ الدقيقةِ مِن الشركِ؛ ففي «مسندِ أحمدَ» (١٨٣٩)، و«الأدبِ المفرَدِ» للبخاريِّ (٧٨٣)؛ مِن حديثِ الأجلَحِ الكِنْديِّ، عن يزيدَ بنِ الأصَمِّ، عن ابنِ عبَّاسٍ؛ أنَّ رجلًا قال للنبيِّ ﷺ: «**ما شاءَ اللهُ وشِئتَ**»، فقال له النبيُّ ﷺ: «**أَجَعَلْتَنِي واللهَ عِدْلًا؟! بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»(١) واللفظُ لأحمدَ.

فهذا الرجلُ الذي يَظهَرُ أنَّه لم يَقصِدْ تسويةَ مشيئةِ الرسولِ بمشيئةِ اللهِ تعالى حقيقةً؛ لأنَّه مِن المعلومِ عندَ الخلقِ كافَّةً: أنَّ مشيئةَ اللهِ تعالى لا

(١) وإسنادُهُ لا بأسَ به، ويَشهَدُ له ما بعده، وقد بوَّب البخاريُّ بابًا في «صحيحه» (٨/ ٣٧٢)؛ فقال: «بابٌ: لا يقولُ: ما شاء اللهُ وشِئْتَ»، وقال النَّسائيُّ: «بابُ النهيِ أن يقالَ: «ما شاء اللهُ وشِئْتَ». «السنن الكبير» (٦/ ٢٤٦).

تساويها مشيئةُ مخلوقٍ، مهما بلَغَ مِن المكانةِ والمنزِلةِ، ومع ذلك عندما أتى بلفظٍ يُفيدُ ذلك ـ وهو الإتيانُ بحرفِ الواوِ التي تُفيدُ المساواةَ ـ غلَّظ الرسولُ ﷺ الإنكارَ عليه.

وأخرَجَ النَّسائيُّ (٣٧٧٣)، وغيرُهُ؛ مِن طريق مِسْعَرٍ، عن مَعْبَدِ بنِ خالدٍ، عن عبدِ اللهِ بنِ يَسارٍ، عن قُتَيْلَةَ ـ امرأةٍ مِن جُهَيْنَةَ ـ أنَّ يهوديًّا أتى النبيَّ ﷺ، فقال: «إنَّكم تنَدِّدونَ، وإنَّكم تُشرِكونَ؛ تقولونَ: «ما شاء اللهُ وشِئْتَ»، وتقولونَ: «والكَعْبةِ»، فأمرَهُمُ النبيُّ ﷺ إذا أرادوا أن يَحلِفوا أن يقولوا: **«وربِّ الكَعْبةِ»**، ويقولوا: **«ما شاء اللهُ ثم شئتَ»**.

وقد روى الزُّهْريُّ، عن سِنَانِ بنِ أبي سِنَانٍ، عن أبي واقدٍ اللَّيْثيِّ؛ قال: «خرَجْنا مع رسولِ اللهِ ﷺ قِبَلَ حُنَيْنٍ، فمرَرْنا بالسِّدْرةِ، فقلنا: «أيْ: رسولَ اللهِ، اجعَلْ لنا هذه ذاتَ أنواطٍ، كما للكُفَّارِ ذاتُ أنواطٍ»، وكان الكفارُ يَنُوطُونَ سلاحَهم بسِدْرةٍ، ويعكُفُونَ حولَها؛ قال النبيُّ ﷺ: **«اللهُ أكبَرُ! هذا كما قالتْ بَنُو إسْرَائِيلَ لِمُوسَى**: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ [الأعراف: ١٣٨]؛ **إنَّكُمْ تَرْكَبُونَ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**»(١).

ففي هذا الحديثِ: عندما طلَبوا منه ﷺ شَجَرةً يتبرَّكونَ بها، أنكَرَ عليهم، وجعَلَ مقالَتَهم هذه مثلَ مقالةِ قومِ موسى لموسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾.

فأين هذا مِن دعاءِ غيرِ اللهِ، والاستغاثةِ بغيرِ اللهِ، والذبحِ لغيرِ اللهِ، والطوافِ بالقبورِ، وغيرِ ذلك مما وقَعَ فيه كثيرٌ مِن الناسِ؟!

وهذا كلُّه بسببِ غفلتِهم عن التوحيدِ، وعدَمِ تدبُّرِهم لما جاء في الكتابِ والسُّنَّة.

وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ» (١٧٤٢٢)؛ مِن طريقِ يزيدَ بنِ أبي منصورٍ، عن دُخَيْنٍ الحَجْريِّ، عن عُقْبةَ بنِ عامرٍ؛ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أقبَلَ إليه رَهْطٌ،

---

(١) أخرجه عبد الرزَّاق في «تفسيره» (١/ ٢٣٥) ـ ومِن طريقه النَّسائيُّ في «الكبرى» (١١١٢١) ـ والترمِذيُّ (٢١٨٠)؛ وقال: «هذا حديثٌ حسَنٌ صحيح».

فبايَعَ تسعةً، وأمسَكَ عن واحدٍ، فقالوا: «يا رسولَ اللهِ، بايَعْتَ تِسْعةً، وتركْتَ هذا؟!»، قال: «**إنَّ عَلَيْهِ تَمِيمَةً**»، فأدخَلَ يدَهُ فقطَعَها، فبايَعَهُ، وقال: «**مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً، فَقَدْ أَشْرَكَ**»؛ وإسنادُهُ جيِّدٌ، ودُخَيْنٌ كان كاتبًا لعُقْبَةَ بنِ عامرٍ.

فانظُرِ امتناعَهُ ﷺ مِن مبايعتِه، مع أنَّه جاء لكي يُسلِمَ، والسببُ وقوعُه في شيءٍ مِن الشِّرْكِ، ولم يؤخِّرْ ذلك إلى ما بعد الإسلامِ، حتى قطَعَ التميمة.

بل كان ﷺ يحذِّرُ أمَّتَهُ، وينهاهم فيما دون ذلك؛ محافَظَةً على التوحيدِ، وسدًّا لطُرُقِ الشركِ:

فقد أخرَجَ مسلمٌ (٨٧٠)؛ مِن حديثِ عبدِ العزيزِ بنِ رُفَيْعٍ، عن تَمِيمِ بنِ طَرَفَةَ، عن عَدِيِّ بنِ حاتمٍ؛ أنَّ رَجُلًا خطَبَ عند النبيِّ ﷺ، فقال: «مَن يُطِعِ اللهَ ورسولَهُ فقد رشَدَ، ومَن يَعْصِهما فقد غوَى»، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**بِئْسَ الخَطِيبُ أَنْتَ! قُلْ: وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ**»؛ وهذا تعظيمٌ للهِ تعالى[(١)].

وكان أيضًا ينهى عن مدحِ الإنسانِ في وجهِه؛ لأنَّ المدحَ كثيرًا ما يُوقِعُ المادحَ في الغُلُوِّ، وسيأتي - إنْ شاء اللهُ تعالى - الكلامُ على هذا.

خامسًا: ممَّا يبيِّنُ معرفةَ التوحيدِ وحقيقةِ العبادةِ، وما يضادُّ ذلك مِن الشركِ: معرفةُ ما كان عليه العرَبُ قبل البعْثةِ؛ لأنَّ بمعرفةِ ذلك يُعرَفُ سبَبُ كُفْرِهم وضلالِهم وانحرافِهم عن مِلَّةِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتُعرَفُ حقيقةُ دعوةِ الرسولِ ﷺ، ودعوةِ الأنبياءِ مِن قبلِه؛ لأنَّ مِن المعلوم أنَّ دعوتَهم واحدةٌ، وهي الإسلامُ؛ فكلُّ رسولٍ كان يقولُ لقومِهِ: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقد بيَّن اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أنَّ سبَبَ كفرِ العربِ وضلالِهم هو اتِّخاذُهم الوسائطَ

---

(١) قال الإمام النوَويُّ في «شرح مسلم» (٦/ ١٥٩): «قال القاضي وجماعةٌ مِن العلماءِ: إنما أنكَرَ عليه؛ لتشريكِهِ في الضميرِ المقتضِي للتسوية، وأمَرَهُ بالعطفِ؛ تعظيمًا للهِ تعالى بتقديمِ اسمِه؛ كما قال ﷺ في الحديثِ الآخَرِ: «**لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ**». اهـ. وقد ردَّ النوويُّ كلامَ القاضي عياضٍ، وأنا أذهَبُ إلى ما قاله القاضي عياض.

بينَهم وبينَ الله تعالى ﷻ، وزَعْمُهم أنَّهم ما كانوا يعبُدُونهم باتِّخاذِهم هذه الوسائطَ إلا ليقرِّبوهم مِن اللهِ زُلْفى، وأنهم يَرْجُون شفاعتَهم عند اللهِ تعالى؛ فبيَّن اللهُ تعالى أنَّهم قد كفَروا بذلك، وضلُّوا ضلالًا بعيدًا:

فقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى عنهم: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٢، ٣].

وفي «صحيح مسلم» (١/ ١٨٥)؛ مِن حديثِ عِكْرِمةَ بنِ عمَّارٍ، عن أبي زُمَيْلٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ؛ أنَّ المشرِكِينَ كانوا إذا طافوا بالبيتِ، يقولون: «لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لك»؛ فيقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: **«وَيْلَكُمْ قَدْ قَدْ!»**، فيقولون: «إلَّا شَرِيكًا هو لَكْ، تَملِكُه وما ملَكْ».

فلم يَنفَعْهم قولُهم: «إلا شريكًا هو لَكْ، تَملِكُهُ وما ملَكْ».

قال الشيخُ محمدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ[١]؛ مبيِّنًا حالةَ العرَبِ قبلَ الإسلام: «اعلَمْ ـ رحمك الله ـ أنَّ التوحيدَ هو إفرادُ اللهِ سبحانه بالعبادةِ، وهو دِينُ الرُّسُلِ الذي أرسَلَهم اللهُ به إلى عبادِه؛ فأوَّلُهم نُوحٌ؛ أرسَلَهُ اللهُ إلى قومِهِ لَمَّا غلَوْا في الصالِحِين: وَدٍّ، وسُوَاعٍ، ويَغُوثَ، ويَعُوقَ، ونَسْرٍ، وآخِرُ الرسلِ محمَّدٌ ﷺ، وهو الذي كسَّر صورَ هؤلاءِ الصالِحِين.

أرسَلَهُ اللهُ إلى أناسٍ يتعبَّدونَ، ويَحُجُّونَ، ويتصدَّقونَ، ويذكُرونَ اللهَ كثيرًا، ولكنَّهم يَجعَلونَ بعضَ المخلوقاتِ وسائطَ بينَهم وبينَ اللهِ؛ يقولون: «نريدُ منهم التقرُّبَ إلى اللهِ، ونريدُ شفاعتَهم عندَه»؛ مثلُ: الملائكةِ، وعيسى، ومَرْيَمَ، وأناسٍ غيرِهم مِن الصالِحِين.

---

(١) في كتابِهِ «كشف الشبهات» (١/ ١٥٥ ـ ١٥٩/ مجموع مؤلَّفات محمَّد بن عبد الوهَّاب).

فبعَثَ اللهُ محمَّدًا ﷺ يجدِّدُ لهم دِينَ أبيهم إبراهيمَ عليه السلام، ويُخبِرُهم أنَّ هذا التقرُّبَ والاعتقادَ مَحْضُ حقٍّ للهِ، لا يصلُحُ منه شيءٌ لغيرِ اللهِ؛ لا لمَلَكٍ مقرَّبٍ، ولا نبيٍّ مرسَلٍ، فضلًا عن غيرِهما.

وإلا فهؤلاء المشرِكون يَشهَدُون أنَّ اللهَ هو الخالقُ وحده لا شريكَ له، وأنَّه لا يرزُقُ إلا هو، ولا يُحيي ولا يُميتُ إلا هو، ولا يدبِّرُ الأمرَ إلا هو، وأنَّ جميعَ السمواتِ ومَن فيهنَّ، والأَرَضِينَ السبعِ ومَن فيهنَّ، كلُّهم عبيدُهُ، وتحت تصرُّفِهِ وقهرِه.

فإذا أردتَّ الدليلَ على أنَّ هؤلاءِ الذين قاتَلَهم رسولُ اللهِ ﷺ يَشهَدُونَ بهذا، فاقرَأْ قولَهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١]، وقولَهُ: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩]، وغيرَ ذلك مِن الآياتِ[(١)].

فإذا تحقَّقْتَ أنَّهم مُقِرُّونَ بهذا، ولم يُدخِلْهم في التوحيدِ الذي دعاهم إليه

---

(١) قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩]؛ فهم يؤمِنونَ بأنَّ الذي خلَقَ السمٰواتِ والأرضَ هو اللهُ، وأنَّه عزيزٌ عليمٌ؛ قال زُهَيْرُ بنُ أبي سُلْمَى ـ وهو جاهليٌّ ـ في معلَّقتِهِ؛ كما في «شرح ديوان زهير» (٢٥):

فَلَا تَكْتُمُنَّ اللَّهَ مَا فِي صُدُورِكُمْ ... لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللَّهُ يَعْلَمِ
يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخَرْ ... لِيَوْمِ الحِسَابِ أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ

ومثلُهُ قولُ عَنْتَرَةَ بنِ شَدَّادٍ؛ كما في «الديوان» (١٠٩):

يَا عَبْلُ أَيْنَ مِنَ الْمَنِيَّةِ مَهْرَبِي ... إِنْ كَانَ رَبِّي فِي السَّمَاءِ قَضَاهَا

فهو يَعلَمُ أنَّ له ربًّا، وأنَّه في السماءِ.

وقولُ حاتمٍ الطائيِّ؛ كما في «شرح ديوان حاتم» (٤٧):

أَمَا وَالَّذِي لَا يَعْلَمُ السِّرَّ غَيْرُهُ ... وَيُحْيِي الْعِظَامَ الْبِيضَ وَهْيَ رَمِيمُ

رسولُ اللهِ ﷺ، وعرَفْتَ أنَّ التوحيدَ الذي جحَدُوهُ هو توحيدُ العبادةِ، الذي يسمِّيه المشرِكونَ في زمانِنا: «الاعتقادَ»؛ كما كانوا يَدْعُونَ اللهَ سبحانه ليلًا ونهارًا، ثم منهم مَن يدعُو الملائكةَ لأجلِ صلاحِهم وقُرْبِهم مِن اللهِ ليَشْفَعوا له، أو يَدْعو رجلًا صالحًا مثلَ: «اللَّاتِ»، أو نبيًّا مثلَ عيسى.

وعرَفْتَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قاتَلَهم على هذا الشركِ، ودعاهم إلى إخلاصِ العبادةِ للهِ وحدَهُ؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن: ١٨]، وقال: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ۝١٤﴾ [الرعد: ١٤].

وتحقَّقْتَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قاتَلَهم؛ ليكونَ الدعاءُ كلُّه للهِ، والنذرُ كلُّه للهِ، والذبحُ كلُّه للهِ، والاستغاثةُ كلُّها باللهِ، وجميعُ أنواعِ العباداتِ كلِّها للهِ.

وعرَفْتَ أنَّ إقرارَهم بتوحيدِ الربوبيَّةِ لم يُدخِلْهم في الإسلامِ، وأنَّ قَصْدَهم الملائكةَ والأنبياءَ والأولياءَ يُرِيدُونَ شفاعتَهم، والتقرُّبَ إلى اللهِ بذلك ـ هو الذي أحَلَّ دماءَهم وأموالَهم ـ: عرَفْتَ حينئذٍ التوحيدَ الذي دعَتْ إليه الرسلُ، وأبى عن الإقرارِ به المشركون.

وهذا التوحيدُ هو معنى قولِكَ: «لا إلَهَ إلا الله»؛ فإنَّ الإلٰهَ عندَهم هو: الذي يُقصَدُ لأجلِ هذه الأمورِ؛ سواءٌ كان ملَكًا أو نبيًّا أو وليًّا، أو شجَرةً أو قبرًا أو جِنِّيًّا، لم يريدوا أنَّ الإلٰهَ هو: الخالقُ الرازقُ المدبِّرُ؛ فإنَّهم يَعلَمونَ أنَّ ذلك للهِ وحدَهُ كما قدَّمْتُ لك، وإنَّما يَعنُونَ بالإلٰهِ: ما يعني به المشرِكونَ في زمانِنا بلفظِ «السَّيِّدِ»؛ فأتاهم النبيُّ ﷺ يَدْعُوهم إلى كلمةِ التوحيدِ؛ وهي: «لا إلٰهَ إلا اللهُ»، والمرادُ مِن هذه الكلمةِ: معناها، لا مجرَّدُ لفظِها، والكفارُ الجُهَّالُ يَعلَمونَ أنَّ مرادَ النبيِّ ﷺ بهذه الكلمةِ هو: إفرادُ اللهِ تعالى بالتعلُّقِ، والكفرُ بما يُعبَدُ مِن دونِ اللهِ، والبراءةُ منه؛ فإنَّه لمَّا قال لهم: «قولوا: لا إلٰهَ إلا اللهُ»، قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥].

فإذا عرَفْتَ أنَّ جُهَّالَ الكفَّارِ يَعرِفونَ ذلك؛ فالعجَبُ ممَّن يدَّعي الإسلامَ وهو لا يَعرِفُ مِن تفسيرِ هذه الكلمةِ ما عرَفَهُ جُهَّالُ الكُفَّارِ؛ بل يَظُنُّ أنَّ ذلك هو التلفُّظُ بحروفِها، مِن غيرِ اعتقادِ القلبِ لشيءٍ مِن المعاني، والحاذِقُ منهم

يَظُنُّ أنَّ معناها: «لا يخلُقُ ولا يرزُقُ إلا اللهُ، ولا يدبِّرُ الأمرَ إلا اللهُ»؛ فلا خيرَ في رجلٍ جُهَّالُ الكُفَّارِ أعلمُ منه بمعنى «لا إلٰهَ إلا اللهُ».

إذا عرَفْتَ ما ذكَرْتُ لك معرِفةَ قلبٍ، وعرَفْتَ الشركَ باللهِ الذي قال اللهُ فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وعرَفْتَ دِينَ اللهِ الذي أرسَلَ به الرسلَ مِن أوَّلِهم إلى آخِرِهم؛ الذي لا يَقبَلُ اللهُ مِن أحدٍ دِينًا سواه، وعرَفْتَ ما أصبَحَ غالبُ الناسِ فيه مِن الجهلِ بهذا ـ: **أفادَكَ فائدتَيْنِ**:

الأُولى: الفرَحُ بفضلِ اللهِ ورحمتِهِ؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

وأفادك أيضًا: الخوفَ العظيمَ؛ فإنَّك إذا عرَفْتَ أنَّ الإنسانَ يكفُرُ بكلمةٍ يُخرِجُها مِن لسانِهِ، وقد يقولُها وهو جاهلٌ؛ فلا يُعذَرُ بالجهلِ، وقد يقولُها وهو يظُنُّ أنَّها تقرِّبُهُ إلى اللهِ تعالى، كما ظَنَّ المشرِكون، خصوصًا إنْ ألهَمَكَ اللهُ ما قَصَّ عن قومِ موسى، مع صلاحِهم وعلمِهم أنَّهم أتَوْهُ قائلِينَ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

فحينئذٍ: يعظُمُ خوفُكَ وحرصُكَ على ما يخلِّصُكَ مِن هذا وأمثالِه». اهـ.

قلتُ: ومعرِفةُ حالِ العرَبِ في جاهليَّتِهم، ومعرِفةُ حالِ الأممِ الأخرى التي سبقَتْهم، في غايةٍ مِن الأهميَّةِ؛ لأنَّه بهذا تُعرَفُ حقيقةُ دعوةِ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام، ولأيِّ شيءٍ دعَوُا الناسَ:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠].

وقال أبو طالبٍ عليُّ بنُ أنجبَ الخازنُ ـ مبيِّنًا أهميَّةَ معرفةِ التاريخ في ترسيخِ عقيدةِ التوحيدِ في القلوبِ، بعد أن ذكَرَ أن أحسَنَ الأسمارْ، وأطيَبَ الأخبارْ، ما حصَلَ به موعِظةٌ واعتبارْ، وهو عِلْمُ التواريخِ والأخبارْ، ومنه

أيضًا يُعلَمُ تقلُّبُ الدُّوَلِ وسرعةُ انتقالِها، وتصرُّفُ الأحوالِ بانقضائها وزوالِها ـ فقال في كتابِهِ «أخبارِ الوُزَراء، في دُوَلِ الأئمَّةِ الخلفاء»(١): «أنه رأى ذلك أَوْفَى مصنَّفاتِ التواريخِ فائدة، وأكثَرَها عائدهْ، وأجَلَّها أثرًا، وأطيَبَها خبرًا، وأحسَنَها سمَرًا، وأحلاها ثمرًا؛ لأنَّ فيها ما يَبعَثُ على اجتلابِ الفضائلْ، واجتنابِ الرذائلْ، وفي مصارعِ الأعيانْ، ومَن ساعَدَهُ الزمانْ(٢)، وملَكَ البُنْيانْ، اعتبارًا لمَن اعتبَرْ، وتجرِبةً لمَن تفكَّرْ؛ إذِ اللبيبُ يرى مكارِمَ الأخلاقِ فيستحسِنُها، ورذائلَ الأفعالِ فيستهجِنُها، وعوائدَ الخيرِ فيطلُبُها، وعواقبَ الشرِّ فيجتنِبُها، وما زال أربابُ الهِمَمِ العليَّة، والنفوسِ الأبيَّة، يتطلَّعون إلى مَحاسِنِ الأخبارِ لِيَجعَلُوها لِقاحًا لأفهامِهم، وصِقالًا لأذهانِهم، وتذكِرةً لقلوبِهم، ورِياضةً لعقولِهم، **ثم إنَّ تأمُّلَ ذلك يَبعَثُ على التوحيدِ، والاعترافِ بوحدانيَّةِ الباري** جَلَّ جَلَالُهُ؛ إذْ في تدبُّرِ مجاري الأقدارْ، وتقلُّبِ الأدوارْ، واختلافِ الليلِ والنهارْ، وتوالي الأمم وتعاقُبِها، وتداوُلِ الدُّوَلِ وتناوُئِها، عظةٌ للمتعِظِينْ، وتنبيهٌ للغافِلِينْ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ولو لم يكُنْ في ذلك إلا ما ينتفِعُ به المعتبِرُ مِن قِلَّةِ الثقةِ بالدنيا الفانيَة، وكثرةِ الرغبةِ في الآخِرةِ الباقيَة، لكفى ما تتوجَّهُ إليه البصيرةُ مِن جميلِ الأفعالْ، وتحُثُّ عليه مِن مصالحِ الأعمالْ». اهـ.

سادسًا: ومما يجلِّي لك معنى التوحيدِ ويوضِّحُهُ: الاستدلالُ عليه بتوحيدِ الربوبيَّةِ؛ وذلك مِن كونِ اللهِ تعالى هو الخالقَ المدبِّرَ المتصرِّفَ، الضارَّ النافعَ الرازقَ وحدَهُ، وغيرَ ذلك مِن أفعالِهِ التي اختصَّ بها.

قال محمَّدُ الأمينُ الشِّنْقِيطيُّ: «ومِن أعظم الاستدلالِ بخَلْقِ المخلوقاتِ على معنى «لا إلَهَ إلا اللهُ»: ما يتَّضِحُ مِن النظرِ في ترتيبِ أوَّلِ «سورةِ البقرةِ»؛ لأنَّه تعالى بدأها بحروفٍ مقطَّعةٍ هي: ﴿الٓمٓ ۝١﴾، ثم أتبَعَ ذلك بتعظيمِ شأنِ

(١) نقلًا عن كتاب «الإعلام بالتوبيخ» للسخاوي (ص٥٥).
(٢) نسبةُ الأفعالِ إلى الزمانِ لا تجوز، وقد ذمَّ الله ﷻ المشركين لقوله: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]؛ فالواجبُ نسبةُ الأفعالِ إلى الله تعالى.

القرآنِ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾، ثم بيَّنَ أنَّ الناسَ بالنسبةِ إلى الإيمانِ بالقرآنِ والكفرِ به **ثلاثُ طوائفَ**:

الطائفةُ الأولى: هي التي آمَنَتْ به ظاهرًا وباطنًا؛ وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ الآية [البقرة: ٢، ٣].

والطائفةُ الثانيةُ: هي التي كفَرَت به ظاهرًا وباطنًا؛ وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ الآيةَ [البقرة: ٦، ٧].

الطائفةُ الثالثةُ: هي التي آمَنَتْ به ظاهرًا، وكفَرَتْ به باطنًا؛ وهم المنافِقون المذكورون في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآيةَ [البقرة: ٨، ٩]، وأطال تعالى الكلامَ في هذه الطائفةِ الأخيرةِ؛ لأنَّها شرُّ الطوائفِ، فضرَبَ لها المثَلَ بالنارِ في قولِهِ تعالى: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾ الآيةَ [البقرة: ١٧]، وبالماءِ في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ﴾ الآيةَ [البقرة: ١٩].

ولا شكَّ أنَّ كلَّ مسلم سَمِعَ هذا التقسيمَ إلى هذه الطوائفِ الثلاثِ؛ يتمنَّى أن يَعلَمَ الطريقَ التي تُوصِلُهُ إلى أن يكونَ مِن الطائفةِ الطَّيِّبةِ، فبيَّن تعالى أنَّ الطريقَ الوحيدَ لكونِهِ منها هو تحقيقُ هاتَيْنِ الكلمتَيْنِ؛ **أعني**: كلمةَ «لا إلٰهَ إلا اللهُ»، وكلمةَ «محمَّدٌ رسولُ اللهِ»؛ فجاء بكلمةِ «لا إلٰهَ إلا اللهُ» أوَّلًا موضِّحةً إثباتَها على حِدَةٍ، ونفيَها على حِدَةٍ، ثم بيَّن البرهانَ القاطعَ على صِحَّتِها، وهو خَلْقُهُ تعالى للمخلوقاتِ، ومِن المعلوم: أنَّ كلمةَ «لا إلٰهَ إلا اللهُ» مركَّبةٌ مِن نفيٍ وإثباتٍ؛ لأنَّ «لا إلٰهَ» نفيٌ، و«إلا اللهُ» إثباتٌ؛ **ومعنى النفيِ منهما**: هو خَلْعُ جميعِ المعبوداتِ غيرِ اللهِ في جميعِ أنواعِ العباداتِ، **ومعنى الإثباتِ منها**: هو إفرادُهُ ﷻ وحدَهُ بجميعِ أنواعِ العباداتِ على الوجهِ الشرعيِّ خاصَّةً، مع الإخلاصِ له في ذلك على وجهِ الذُّلِّ والخضوعِ والمحبَّة.

فإذا عرَفْتَ ذلك، فاعلَمْ أنَّ قولَهُ ﷻ بعد ذكرِ الطوائفِ الثلاثِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ

﴿ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]؛ كما وصَفْنا لك:

فقولُهُ ﷻ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾، فيه معنى الإثباتِ «لا إلٰهَ إلا اللهُ»؛ وهو أوَّلُ أمرٍ في المُصحَفِ الكريم.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، يتضمَّنُ معنى النفيِ منها على أبلغِ وجهٍ، وأكملِهِ وأتمِّه، وهو أوَّلُ نهيٍ في المُصحَفِ الكريم.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ﴾؛ هو البرهانُ القاطعُ على صِحَّةِ معنى «لا إلٰهَ إلا اللهُ»؛ ولذا جاء به بين طرَفَيْها، وهو نصٌّ صريحٌ سماويٌّ في أنَّ مِن حِكَمِ خَلْقِ الخلقِ مِن العقلاءِ وغيرِهم، إقامةَ البرهانِ بذلك على أنَّه تعالى هو المعبودُ وحدَهُ...».

إلى أنْ قال: «ولأجلِ ذلك جرَتِ العادةُ في القرآنِ بأنَّ اللهَ تعالى يَجعَلُ علامةَ استحقاقِ العبادةِ هو كونَ المعبودِ خالقًا؛ لأنَّ خَلْقَهُ للخلقِ برهانٌ على استحقاقِهِ للعبادةِ؛ كقولِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾.

وقولُهُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾، بعد قولِهِ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾، واضحٌ في ذلك.

وكقولِهِ تعالى في «الرعدِ»: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]؛ **يعني**: وخالقُ كلِّ شيءٍ هو المعبودُ وحدَه.

وكقولِهِ تعالى في «فاطرٍ»: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ [فاطر: ٤٠]؛ وهو صريحٌ في أنَّ مَن لا يخلُقُ غيرَهُ لا يُعبَدُ، وأنَّ مَن يخلُقُ غيرَهُ هو الذي يُعبَدُ، وبه تعلَمُ أنَّ مِن حِكَمِ خَلْقِ الخَلْقِ الدليلَ على استحقاقِ العبادة.

ونظيرُ ذلك: قولُهُ تعالى في «لُقمانَ»: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾

[لقمان: ١٠، ١١]، وقولُهُ في «الأحقافِ»: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: ٤]، وقولُهُ تعالى في «الأعرافِ»: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف: ١٩١]، وقولُه تعالى في «الحجِّ»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣]؛ **يعني**: أنَّ مَن لم يكُنْ خالقًا، فلا يَصِحُّ أن يكونَ معبودًا، والمعبودُ لا بدَّ أن يكونَ خالقًا.

ولمَّا بيَّن تعالى في «سورةِ النحلِ» تلك البراهينَ العظيمةَ على جلالتِهِ وعظمتِهِ، وأنَّه المعبودُ وحدَهُ في قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، إلى قولِه: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ٣ ـ ١٧].

ولمَّا بيَّن في «سورةِ الفرقانِ» علاماتِ مَن يستحِقُّ العبادةَ بقولِهِ: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ٢]، أتبعَ ذلك بصفاتِ مَن لا يستحِقُّ أن يُعبدَ بقولِهِ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣]، والآياتُ بمثلِ هذا كثيرةٌ جدًّا معروفةٌ».

ثم قال: «وأمَّا مسألةُ رزْقِهِ تعالى الخَلْقَ، فقد بيَّن تعالى في آياتٍ كثيرةٍ مِن كتابِهِ: أنَّ مِن حِكَم ذلك كونَهُ برهانًا قاطعًا على أنَّه لا إلٰهَ إلا هو وحدَهُ، وأنَّه المعبودُ وحدَهُ؛ فكونُهُ هو الرازقَ لخَلْقِهِ مِن أعظمِ أدلَّةِ التوحيدِ الدالَّةِ على عظمتِهِ ﷻ وجلالِهِ وكمالِ قدرته.

ولذا يأتي بصفةِ الرَّزْقِ دائمًا في القرآنِ في إقامةِ البرهانِ على توحيدِهِ تعالى؛ كقولِهِ تعالى في «الرُّومِ»: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم: ٤٠]، وقولِهِ تعالى في «يُونُسَ»: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١]، وقولِهِ تعالى في «النملِ»:

﴿أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ [النمل: ٦٤]، وقولِه في «غافرٍ»: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [غافر: ١٣]، وقولِه تعالى في «الجاثيةِ»: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الجاثية: ٥]، وقولِه تعالى في «البقرةِ»: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]، وقولِه في «غافرٍ»: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ﴾ [غافر: ٦٤]، وقولِه تعالى في «الأنعامِ»: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقولِه تعالى في «العنكبوتِ»: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧].

ومِن أصرَحِ البراهينِ في ذلك قولُه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾، إلى قولِه: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢]، والآياتُ بمثلِ هذا كثيرةٌ جدًّا.

وصفةُ الرَّزْقِ في جميعِ الآياتِ المذكورةِ إنَّما هي مِن براهِينِ التوحيدِ، وبذلك تَعلَمُ أنَّ مِن حِكَمِ رَزْقِهِ تعالى لخَلْقِهِ إقامةَ البرهانِ لهم بذلك على عظمتِهِ وكمالِ قدرتِهِ، وأنَّه المعبودُ وحدَهُ ﷻ»[1].

سابعًا: وممَّا يفسِّرُ التوحيدَ ويبيِّنُهُ: أن يَعرِفَ العبدُ عظمةَ اللهِ ﷻ، وعظيمَ قدرتِهِ، ونعوتَ جلالِهِ، وأنَّ العبادَ مهما بلَغُوا مِن المكانةِ عندَ اللهِ ﷻ، فهم عَبيدٌ للهِ، مفتقِرونَ إليه، لا يَنفعُونَ ولا يضُرُّونَ أحدًا مِن دونِهِ:

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ

(١) «فتاوى الشيخ محمَّد الأمين الشِّنْقِيطي»، المطبوعة ضمن «مجموع مؤلَّفاته» (ص٣ ـ ١٤).

لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾.

إلى أنْ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ١١ ـ ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: ١٩ ـ ٢٩].

والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ؛ فالقرآنُ كلُّه في بيانِ عظمةِ اللهِ وكمالِهِ وجلالِهِ، وأنَّ الإنسانَ ليس بيدِهِ شيءٌ إلا ما أقدرَهُ اللهُ عليه:

قال اللهُ تعالى عن نبيِّه محمَّدٍ ﷺ الذي له الدرجةُ العاليةُ والمنزلةُ الرفيعةُ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ

لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال تعالى عنه أيضًا: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٥ ـ ١٠٧].

وقال تعالى عنه أيضا في «سورةِ الجنِّ»: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن: ٢٠ ـ ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٨٣].

ثامنًا: ومِن الأمورِ المُهِمَّةِ التي تبيِّنُ لك التوحيدَ، وتفسِّرُ لك العبادةَ، وتُبعِدُك عن الشِّرْكِ: الحَذَرُ مِن الغُلُوِّ، والابتعادُ عنه، وتركُ الأسبابِ التي تؤدِّي إليه؛ لأنَّ أوَّلَ شركٍ وقعَ في الأرضِ كان بسببِ الغُلُوِّ بالصالِحين؛ ولذا قال اللهُ تعالى محذِّرًا عبادَهُ مِن ذلك: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ

أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧].

وأخرجَ الإمامُ أحمدُ (٣٢٤٨) مِن حديثِ زيادِ بنِ حُصَيْنٍ، عن أبي العاليةِ، عن ابنِ عبَّاسٍ؛ أنَّ الرسولَ ﷺ قال: «**إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ**».

وأخرجَ البخاريُّ (٣٤٤٥)؛ مِن حديثِ ابنِ عبَّاسٍ، عن عُمَرَ؛ أنَّ الرسولَ ﷺ قال: «**لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عبدُهُ، فَقُولُوا: «عبدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»**». و«**الإطراءُ**»: هو المبالَغةُ في المدحِ.

وقد أخرجَ أبو داودَ (٤٨٠٦) بإسنادٍ صحيحٍ؛ مِن حديثِ أبي نَضْرةَ، عن مطرِّفٍ؛ قال: قال أبي: انطلَقْتُ في وَفْدِ بني عامرٍ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقُلْنا: «أنتَ سَيِّدُنا»؛ فقال: «**السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**»، قلنا: «وأفضَلُنا فَضْلًا، وأعظَمُنا طَوْلًا»، فقال: «**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**»[(١)].

أخرجَ النَّسائيُّ في «الكبرى» (١٠٠٠٧) بإسنادٍ صحيحٍ؛ مِن حديثِ حَمَّادِ بنِ سَلَمةَ؛ قال: ثنا ثابتٌ، عن أنسٍ؛ أنَّ ناسًا قالوا لرسولِ اللهِ ﷺ: «يا

---

(١) قولُه: «ولا يَستَجرِيَنَّكُمُ الشيطانُ»؛ أي: لا يتَّخِذَنَّكم جَرِيًّا؛ أي: كثيرَ الجَرْيِ في طريقِهِ ومتابَعةِ خَطَراتِه، وقيل: هو مِن الجَراءةِ بالهمزة؛ أي: لا يَجْعَلَنَّكم ذوي شجاعةٍ على التكلُّم بما لا يجوزُ، وفي «النهاية»: «أي: لا يَغْلِبَنَّكُمْ فيَتَّخِذَكم جَرِيًّا»؛ أي: رسولًا ووكيلًا، وذلك أنهم كانوا مدَحُوه، فكَرِهَ لهم المبالَغةَ في المدحِ؛ فنهاهم عنه، والمعنى: تكلَّموا بما يحضُرُكم مِن القولِ ولا تتكلَّفوه؛ كأنَّكم وكلاءُ الشيطانِ ورُسُلُهُ تَنطِقونَ على لسانِه. ينظر: «معالم السنن» (٤/ ١١٢)، و«النهاية» لابن الأثير (١/ ٢٦٤)، و«الكاشف عن حقائق السُّنَن» للطِّيبي (١٠/ ٣١٤٩ ـ ٣١٥٠)، و«مِرْقاة المفاتيح» (٧/ ٣٠٧٥).

خَيْرَنا وابنَ خَيْرِنا، ويا سَيِّدَنا وابنَ سَيِّدِنا»، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، عَلَيْكُمْ بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ؛ إِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِيهَا اللهُ تَعَالَى؛ أَنَا مُحَمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ، عبدُهُ وَرَسُولُهُ»**.

ففي هذَيْنِ الحديثَيْنِ نهاهم رسولُ اللهِ ﷺ عن تسييدِهِ، مع أنَّه سيِّدُ ولَدِ آدمَ؛ خوفًا عليهم مِن الغُلُوِّ، وتواضُعًا منه لربِّه ﷻ؛ فأين هذا مِن إطلاقِ بعضِ المخلوقِينَ على بعضِ الخَلْقِ: بأنَّه مَلِكُ القلوبِ، وهذا خطأٌ كبيرٌ؛ لأنَّ مَلِكَ القلوبِ هو اللهُ تعالى وحدَهُ؛ فهو الذي يَملِكُ تصريفَها وتقليبَها كيف يشاءُ؛ كما أخرَجَ مسلمٌ في «صحيحِه» (٢٦٥٤) مِن طريقِ أبي هانِئٍ، عن أبي عبدِ الرحمٰنِ الحُبُليِّ؛ أنَّه سَمِعَ عبدَ اللهِ بنَ عَمْرِو بنِ العاصِ يقولُ: إنَّه سَمِعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: **«إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»**، ثُمَّ قال رسولُ اللهِ ﷺ: **«اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»**.

وأخرَجَ أحمدُ (١٧٦٣٠)، والنَّسَائيُّ في «الكبرى» (٧٦٩١)، وابنُ أبي عاصِمٍ في «السُّنَّةِ» (٢١٩) واللفظُ له، وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ (٩٤٣)، والحاكِمُ (١/ ٥٢٥)، (٤/ ٣٢١)؛ كلُّهم مِن طريقِ بُسْرِ بنِ عُبَيْدِ اللهِ، عن أبي إدريسَ الخَوْلانيِّ، عن النَّوَّاسِ بنِ سَمْعَانَ[(١)] الكِلَابيِّ، قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: **«مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ؛ إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ»**.

ومثلُ ما تقدَّم: تسميةُ بعضِ المخلوقِين بـ«مَلِكِ الإنسانيَّةِ». و«مَلِكُ الإنسانيَّةِ» على الإطلاقِ هو اللهُ تعالى؛ قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس: ١].

بل نهى ﷺ عمَّا هو دون ذلك؛ فقد أخرَجَ البخاريُّ (٢٦٦٢)، ومسلمٌ

---

(١) «النَّوَّاسُ»: بالفتحِ وتشديدِ الواوِ، ثم مهمَلة، و«سَمْعانُ» بفتحِ أوَّلِهِ أو بكسرِه. ينظر: «تقريب التهذيب» (٢/ ٥٦٦)، و«تبصير المنتبِه» (٤/ ١٤٢٧)، و«خُلَاصة تَذْهيب تهذيب الكمال» (ص٤٠٦).

(٣٠٠٠)؛ مِن حديثِ عبدِ الرحمٰنِ بنِ أبي بَكْرةَ، عن أبيه؛ قال: «مدَحَ رَجُلٌ رَجُلًا عند النبيِّ ﷺ، فقال: «**وَيْلَكَ؛ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ! قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ!**» مِرَارًا، ثم قال: «**مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لَا مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ: «أَحْسِبُ فُلَانًا، وَاللهُ حَسِيبُهُ، وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَدًا؛ أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا»؛ إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ**»، وأخرجه البخاريُّ أيضًا (٦٠٦١)، وبوَّب عليه: «ما يُكرَهُ مِن التمادُحِ».

وأخرَجَ الشيخانِ البخاريُّ (٢٦٦٣)، ومسلمٌ (٣٠٠١)؛ كلاهما مِن طريقِ بُرَيْدِ بن عبدِ الله بنِ أبي بُرْدةَ، عن أبي بُرْدةَ، عن أبي موسى؛ قال: «سَمِعَ النبيُّ ﷺ رَجُلًا يُثني على رَجُلٍ ويُطْريهِ في المِدْحةِ، فقال: «**لَقَدْ أَهْلَكْتُمْ ـ أَوْ: قَطَعْتُمْ ـ ظَهْرَ الرَّجُلِ**»، وقد بوَّب البخاريُّ على هذا الحديثِ: «بابُ: ما يُكرَهُ مِن الإطنابِ في المَدْحِ، ولْيَقُلْ ما يَعلَمُ»؛ كلُّ هذا؛ صيانةً للتوحيدِ، وتحقيقًا له، وقطعًا للشركِ، وسدًّا لأبوابه.

تاسعًا: وممَّا يبيِّنُ لك حقيقةَ التوحيدِ أيضًا: عدمُ الاغترارِ بالدنيا والتعلُّقِ بها، والإكثارِ مِن حُطَامِها الفاني؛ فإنَّه لا يخفى أنَّ مِن الأسبابِ الكبيرةِ التي أوقَعَتِ العبادَ في المعاصي والذنوبِ؛ بل والشركِ والغَفْلةِ عن اللهِ ﷻ ـ تقديمَ الدنيا على الآخِرةِ، وشِدَّةَ التعلُّقِ بها:

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾ [هود: ١٥، ١٦][1].

(١) قال محمَّد بن عبد الوهَّاب في تفسيرِ هذه الآية ما حاصلُهُ: «ذُكِرَ عن السلَفِ فيها أنواعٌ مما يَفعَلُهُ الناسُ اليومَ، ولا يَعرِفُونَ معناه:

فمِن ذلك: العمَلُ الصالحُ الذي يَفعَلُهُ كثيرٌ مِن الناسِ ابتغاءَ رحمةِ الله؛ مِن صدَقةٍ، وصلاةٍ، وصلةٍ، وإحسانٍ إلى الناسِ، وتركِ ظلمٍ، ونحوِ ذلك مما يَفعَلُهُ الإنسانُ أو يترُكُهُ خالصًا لله، لكنه لا يريدُ ثوابَهُ في الآخرة، إنما يريدُ أن يجازيه اللهُ بحفظِ مالِهِ وتنميتِه، أو حفظِ أهلِهِ وعيالِه، أو إدامةِ النعمِ عليه، ولا هِمَّةَ له في طلَبِ الجَنَّةِ والهرَبِ مِن النار. =

وقد بيَّن ربُّنا ﷻ في آياتٍ كثيرةٍ حَقارةَ الدنيا، وسُرْعةَ زوالِها، وأنَّ على العبدِ أن يتعلَّقَ بخالِقِهِ ومَوْلاه، ويقدِّمَ آخِرتَهُ على دنياه:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ

= فهذا يُعطَى ثوابَ عمَلِهِ في الدنيا، وليس له في الآخرةِ مِن نصيب؛ وهذا النوعُ ذكَرَهُ ابنُ عبَّاس.

النوعُ الثاني: وهو أكبرُ مِن الأوَّلِ وأخوفُ؛ وهو الذي ذكَرَهُ مجاهدٌ في الآية: أنها نزَلَتْ فيه؛ وهو: أن يعمَلَ أعمالًا صالحةً، ونيَّتُهُ رياءُ الناسِ، لا طلَبُ ثوابِ الآخِرة.

النوعُ الثالثُ: أن يَعمَلَ أعمالًا صالحةً يَقصِدُ بها مالًا؛ مثلُ أن يحُجَّ لمالٍ يأخُذُه، أو يهاجِرَ لدُنْيا يُصيبُها أو امرأةٍ يتزوَّجها، أو يجاهِدَ لأجلِ المَغنَم.

فقد ذُكِرَ أيضًا هذا النوعُ في تفسيرِ هذه الآيةِ، وكما يَتعلَّمُ الرجلُ لأجلِ مَدرَسةِ أهلِه، أو مَكسَبِهم، أو رياسَتِهم، أو يَتعلَّمُ القرآنَ ويواظِبُ على الصلاةِ لأجلِ وظيفةِ المسجدِ؛ كما هو واقعٌ كثيرًا.

النوعُ الرابعُ: أن يَعمَلَ بطاعةِ اللهِ مخلِصًا في ذلك للهِ وحده لا شريكَ له؛ لكنه على عمَلٍ يكفِّرُهُ كفرًا يُخرِجُهُ عن الإسلام؛ مثلُ اليهودِ والنصارى إذا عبَدُوا اللهَ أو تصدَّقوا أو صاموا ابتغاءَ وجهِ اللهِ والدارِ الآخرة، ومثلُ كثيرٍ مِن هذه الأمَّةِ الذين فيهم كفرٌ أو شركٌ أكبرُ يُخرِجُهم مِن الإسلامِ بالكليَّةِ؛ إذا أطاعوا اللهَ طاعةً خالِصةً يُريدُونَ بها ثوابَ اللهِ في الدارِ الآخِرة، لكنَّهم على أعمالٍ تُخرِجُهم مِن الإسلام، وتَمنَعُ قَبولَ أعمالِهم.

فهذا النوعُ أيضًا قد ذُكِرَ في هذه الآيةِ عن أنسِ بنِ مالكٍ وغيرِه، وكان السلَفُ يَخافُونَ منها؛ قال بعضُهم: «لو أعلَمُ أنَّ اللهَ تقبَّل مني سجدةً واحدةً، لتمنَّيْتُ الموتَ؛ لأنَّ اللهَ يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧]».

ثُمَّ قال: «**بَقِيَ أن يقالَ:** إذا عَمِلَ الرجلُ الصلواتِ الخمسَ والزكاةَ والصومَ والحجَّ؛ ابتغاءَ وجهِ اللهِ، طالبًا ثوابَ الآخِرة، ثم بعدَ ذلك عَمِلَ أعمالًا قاصدًا بها الدنيا؛ مثلُ أن يحُجَّ فرضَهُ لله، ثم يحُجَّ بعدَهُ لأجلِ الدنيا؛ كما هو واقعٌ، فهو لِمَا غلَبَ عليه منهما»، وقد قال بعضُهم: «القرآنُ كثيرًا ما يذكُرُ أهلَ الجَنَّةِ الخُلَّصَ، وأهلَ النارِ الخُلَّصَ، ويسكُتُ عن صاحبِ الشائِبَتَيْنِ، وهو هذا وأمثالُهُ». «فتح المجيد» (ص٤٣٩ ـ ٤٤١)؛ وهو موجود في «كتاب التفسير» مِن مؤلَّفات الشيخ (٣/ ١٢٠ ـ ١٢٣).

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٤ ـ ١٧].

وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

وأمّا الناحيَةُ العمليَّةُ، والمقصودُ بها: التكاليفُ والعباداتُ التي يقومُ بها العبدُ في يومِهِ وليلتِهِ، ففيها البرهانُ الواضحُ، والدليلُ الظاهرُ، في بيانِ التوحيدِ، والنهيِ عن ضدِّه:

فأوّلًا: ما يتعلّقُ بأركانِ الإسلامِ الخمسةِ، ورأسُ ذلك شهادةُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ؛ فمِن المعلومِ: أنَّ الإنسانَ لا يكونُ مسلِمًا إلا بنُطْقِهِ بالشهادتَيْن، مع العلمِ بمعناها والعملِ بمقتضاها.

قال الشيخُ عبدُ الرحمٰنِ بنُ حسَنٍ في «المطلب الحميدْ، في بيانِ مقاصدِ التوحيدْ» (ص٢١٤ ـ ٢٢١): «وقد بيَّن اللهُ تعالى في مواضِعَ مِن القرآنِ، معنى كلمةِ الإخلاصِ: «لا إلٰهَ إلا اللهُ»، ولم يَكِلْ عبادَهُ في بيانِ معناها إلى أحدٍ سواه، وهو صراطُهُ المستقيمُ؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨]؛ فعبَّر عن معنى: «لا إلٰهَ»؛ بقولِه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾، وعبَّر عن معنى: «إلا اللهُ»؛ بقولِه: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾.

فتبيَّن أنَّ معنى «لا إلٰهَ إلا اللهُ»، هو: البراءةُ مِن عبادةِ كلِّ ما سوى اللهِ، وإخلاصُ العبادةِ بجميعِ أنواعِها للهِ تعالى كما تقدَّم؛ وهذا واضحٌ بيِّنٌ لمَن جعَلَ اللهُ له بصيرةً، ولم تتغيَّرْ فِطْرَتُهُ، ولا يَخفَى إلا على مَن عَمِيَتْ بصيرتُهُ

بالعوائدِ الشركيَّةِ، وتقليدِ مَن خرجَ عن الصراطِ المستقيم، مِن أهلِ الأهواءِ والبدعِ والضلالِ: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

وقال تعالى في بيانِ معناها: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]؛ **والمعنى**: أيَّ بعضٍ كان؛ مِن نبيٍّ، أو غيرِه؛ كالمسيحِ بنِ مريمَ، والعُزَيرِ، ونحوِهما، وفي قولِه: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾ **معنى**: «لا إلٰهَ»، وقولِه: «إلا اللهُ»؛ هو المستثنى في كلمةِ الإخلاص.

وهذا التوحيدُ هو الذي دعا إليه النبيُّ ﷺ أهلَ الكتابِ وغيرَهم مِن الإنسِ والجنِّ؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقد قال تعالى في معنى هذه الكلمةِ عن أصحابِ الكهفِ: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف: ١٦]؛ ففي قولِه: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾، **معنى**: «لا إله»، وقولُه: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ هو المستثنى في كلمةِ الإخلاص.

وقال تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟﴾، إلى قولِه: ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ [الكهف: ١٤].

فتقرَّر بهذا أنَّ الإلٰهيَّةَ: هي العبادةُ. وأنَّ مَن صرفَ شيئًا لغيرِ اللهِ، فقد جعلَهُ للهِ نِدًّا، والقرآنُ كلُّه في تقريرِ معنى «لا إلٰهَ إلا اللهُ»، وما تقتضيه، وما تستلزِمُه، وذكرِ ثوابِ أهلِ التوحيدِ، وعقابِ أهلِ الشرك.

ومع هذا البيانِ الذي ليس فوقَهُ بيانٌ، كثُرَ الغلَطُ في المتأخِّرينَ مِن هذه الأمَّةِ في معنى هذه الكلمةِ، وسببُهُ: تقليدُ المتكلِّمينَ الخائضِين:

فظَنَّ بعضُهم: أنَّ معنى «لا إلٰهَ إلا اللهُ»: إثباتُ وجودِ اللهِ تعالى؛ ولهذا قدَّروا الخبرَ المحذوفَ في «لا إلٰهَ إلا اللهُ»، وقالوا: «لا إلٰهَ موجودٌ إلا اللهُ»؛ ووجودُهُ تعالى قد أقرَّ به المشرِكونَ الجاحِدونَ لمعنى هذه الكلمة.

وطائفةٌ: ظَنُّوا أنَّ معناها: قدرتُهُ على الاختراعِ؛ وهذا معلومٌ بالفطرةِ،

وما يُشاهَدُ مِن عظيمِ مخلوقاتِ اللهِ تعالى؛ كخَلْقِ السمواتِ والأرضِ، وما فيهما مِن عجائبِ المخلوقاتِ؛ وبه استدَلَّ الكليمُ موسى عليه السلام على فرعونَ لمَّا قال: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٦].

وفي «سورةِ بني إسرائيلَ»: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]؛ ففرعونُ يعرِفُ اللهَ، ولكنْ جحَدَهُ مكابَرةً وعنادًا.

وأمَّا غيرُ فرعونَ مِن أعداءِ الرُّسُلِ، مِن قَوْمِهم، ومُشرِكي العربِ، ونحوِهم، فأقَرُّوا بوجودِ اللهِ تعالى وربوبيَّتِهِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩]؛ فلم يُدخِلْهم ذلك في الإسلامِ لمَّا جحَدُوا ما دَلَّتْ عليه «لا إلٰهَ إلا اللهُ» مِن إخلاصِ العبادةِ بجميعِ أفرادِها للهِ وحدَه.

وفي الحديثِ الصحيحِ: «**مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا، دَخَلَ النَّارَ**»[(١)] ـ وتقدَّم قولُ قومِ هُودٍ: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٠] ـ دليلٌ على أنَّهم أقرُّوا بوجودِهِ وربوبيَّتِهِ، وأنَّهم يعبُدُونَهُ؛ لكنَّهم أبَوْا أن يجرِّدوا العبادةَ للهِ وحدَهُ، دُونَ آلهتِهم التي كانوا يعبُدُونها معه.

فالخصومةُ بين الرسلِ وأُمَمِهم، ليست في وجودِ الربِّ، وقدرتِهِ على الاختراعِ؛ فإنَّ الفِطَرَ والعقولَ دَلَّتْهم على وجودِ الربِّ، وأنَّه ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُهُ، وخالقُ كلِّ شيءٍ، والمتصرِّفُ في كلِّ شيءٍ؛ وإنَّما كانت الخصومةُ في تركِ ما كانوا يعبُدُونَهُ مِن دونِ اللهِ:

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [هود: ٢٥، ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ

(١) أخرجه البخاري (٤٤٩٧)؛ مِن طريقِ الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود.

تَعۡلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت: ١٦ ـ ١٨].

فالشركُ في العبادةِ هو الذي عَمَّتْ به البلوى في الناسِ، قديمًا وحديثًا؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الروم: ٤٢].

إلى أنْ قال: «وقد قُيِّدَتْ «لا إلٰهَ إلا اللهُ» في الأحاديثِ الصحيحةِ، بقيودٍ ثِقَالٍ لا بُدَّ مِن الإتيانِ بجميعِها؛ قولًا، واعتقادًا، وعملًا؛ فمِن ذلك حديثُ عِتْبانَ الذي في «الصحيح»(١): «**فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؛ يَبْتَغِي بِذَلِك وَجْهَ اللهِ**»، وفي حديثٍ آخَرَ: «**صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ**»(٢)، «**خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**»(٣)، «**مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ**»(٤)، «**غَيْرَ شَاكٍّ**»(٥)؛ **فلا تَنفَعُ هذه الكلمةُ قائلَها إلا بهذه القيودِ إذا اجتمَعَتْ له، مع العلمِ بمعناها ومضمونِها:**

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف: ٨٦]، وقال تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمَّد: ١٩]؛ **فمعناها**: يَقبَلُ الزيادةَ؛ لقوةِ وصلاحِ العملِ.

فلا بدَّ: مِن العلمِ بحقيقةِ معنى هذه الكلمةِ، علمًا ينافي الجهلَ، بخلافِ مَن يقولُها وهو لا يَعرِفُ معناها، ولا بدَّ مِن اليقينِ المنافي للشكِّ، فيما دَلَّت عليه مِن التوحيد.

ولا بدَّ: مِن الإخلاصِ المنافي للشركِ؛ فإنَّ كثيرًا مِن الناسِ يقولُها وهو يُشرِكُ في العبادةِ، ويُنكِرُ معناها، ويعادي مَن اعتقَدَهُ وعَمِلَ به.

(١) أخرجه البخاري (٤٢٥ و١١٨٦ و٥٤٠١)، ومسلم (٣٣).
(٢) أخرجه البخاري (١٢٨)؛ مِن حديث أَنس.
(٣) أخرجه البخاري (٩٩)؛ مِن حديث أبي هُرَيْرة.
(٤) أخرجه مسلم (٣١)؛ مِن حديث أبي هُرَيْرة.
(٥) أخرجه مسلم (٢٧)؛ مِن حديث أبي هُرَيْرة.

ولا بدَّ: مِن الصدقِ المنافي للكذبِ؛ بخلافِ حالِ المنافِقِ الذي يقولُها مِن غيرِ صدقٍ؛ كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

ولا بدَّ: مِن القَبُولِ المنافي للردِّ؛ بخلافِ مَن يقولُها ولا يَعمَلُ بها.

ولا بدَّ: مِن المحبَّةِ لِمَا دَلَّتْ عليه مِن التوحيدِ، والإخلاصِ، وغيرِ ذلك، والفرحِ بذلك، المنافي لخلافِ هذَيْنِ الأمرَيْن.

ولا بدَّ: مِن الانقيادِ بالعملِ بها وما دَلَّتْ عليه مطابَقةً، وتضمُّنًا، والتزامًا؛ وهذا هو دِينُ الإسلامِ، الذي لا يَقبَلُ اللهُ دِينًا سواه»[١].

ولا يخفى: أنَّ الحكمةَ مِن خلقِ الخليقهْ، وشرعِ الطريقهْ[٢]، هو توحيدُهُ وإفرادُهُ بالعبادةِ، وإثباتُ ما أثبَتَهُ لنفسِهِ مِن نعوتِ الجلالْ، وصفاتِ الكمالْ، ومحبَّةِ أوليائِهْ، ومعاداةِ أعدائِهْ، والبراءةِ مِن الشركِ وأهلِهِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

وهذا هو دِينُ الإسلامِ الذي ارتضاهُ اللهُ لعبادِهِ، ولا يدخُلُ الإنسانُ الإسلامَ إلا بإعلانِهِ للتوحيدِ، والبراءةِ مِن الشركِ:

كما قال تعالى عن إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨]، وقال تعالى عن قوم إبراهيمَ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

وكما في «صحيح مسلم» (١٦) مِن حديثِ عاصمِ بنِ محمَّدِ بنِ زيدٍ، عن أبيه، عن ابنِ عمرَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ**

(١) آخِرُ كلامِ الشيخ عبد الرحمٰن بن حسَن. وينظر: «الدرر السَّنيَّة» (٢/ ٢٣١ ـ ٢٤٤).

(٢) «الطريقةُ» هي: الصراطُ المستقيمُ الذي أمَرَ اللهُ عبادَهُ باتباعِه.

لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ».

وفي «البخاريِّ» (٥٠)، و«مسلم» (٩)؛ مِن حديثِ أبي زُرْعةَ، عن أبي هريرةَ رضي الله عنه؛ قال: «قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**الإِسْلَامُ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ**».

وفي «صحيح مسلم» (٨)؛ مِن حديثِ يحيى بنِ يَعْمَـرَ، عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ، عن أبيه؛ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال وقد سُئِلَ عن الإسلام، فقال: «**الإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا...**» الحديثَ، والنصوصُ في هذا البابِ كثيرةٌ متوافِرةٌ.

وأمَّا الصلاة التي هي الركنُ الثاني: فهي توحيدٌ عمَليٌّ؛ لأنَّها توجُّهٌ للهِ، وخضوعٌ له، وصِلَةٌ بين العبدِ وربِّه؛ فالنداءَ لها يكونُ بتكبيرِ اللهِ وتعظيمِهِ، وبالشهادةِ له بالوحدانيَّةِ، ولرسولِهِ بالرسالةِ، ثم يَختِمُ الأذانَ بتوحيدِهِ وتكبيرِهِ، ثم يفتتِحُها المصلِّي بإعلانِهِ أنَّ اللهَ أكبَرُ مِن كلِّ شيءٍ، ثم يناجي ربَّه بقولِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، تَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**»[(١)].

فينزِّهُ العبدُ ربَّهُ مِن كلِّ نقصٍ، ويَحمَدُهُ ويعظِّمُهُ، ثم يُخبِرُ عن توحيدِهِ لربِّه، ثم عندَما يَقرَأُ الفاتحةَ؛ **وهي قسمان**: **ثناءٌ** مِن العبدِ على ربِّه، **ودعاءٌ** له بأن يَهدِيَهُ صراطَهُ المستقيم[(٢)].

ثم يُثنِي العبدُ على ربِّهِ ويعظِّمُهُ عز وجل[(٣)].

ثم إذا رفَعَ مِن الركوعِ، شُرِعَ له أنْ يَحمَدَ رَبَّهُ ويُثنِيَ عليه بآلائِه، عند

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٩)؛ مِن حديث عُمَر بن الخطَّاب موقوفًا، وأخرجه أبو داود (٧٧٥)، والتِّرمِذي (٢٤٢)، والنَّسائي (٨٩٩ و٩٠٠)، وابن ماجه (٨٠٤)؛ من حديث أبي سعيد الخُدْري مرفوعًا.

(٢) هذا مِن كلامِ أبي عبدِ اللهِ ابنِ القيِّم رحمه الله تعالى، في كتابه: «الكلامِ على مسألةِ السماع» (ص٩٩ ـ ١١٣) باختصارٍ وتصرُّفٍ.

(٣) وهذا في الركوع.

اعتدالِهِ وانتصابِه؛ بأن وفَّقه لذلك الخضوعِ، ثم نقَلَهُ منه إلى مقامِ الاعتدالِ والاستواءِ بين يدَيْهِ، واقفًا في خدمتِهِ؛ كما كان في حالِ القراءة.

ثم شُرِعَ له أن يكبِّرَ ويَخِرَّ ساجدًا؛ فيضَعَ **ناصيتَهُ** على الأرضِ بين يدَيْ ربِّه، راغمًا له أنفُه، خاضعًا له قلبُهُ وجوارحُه، متذلِّلًا لعظمتِه، خاضِعًا لعزَّتِه، أذلَّ شيءٍ وأكسرَهُ لربِّهِ تعالى، مسبِّحًا له بعُلُوِّه، قد طابَقَ قلبُهُ حالَ جِسْمِه، فسجَدَ القلبُ كما سجَدَ الوجهُ، فأحرى به ـ في هذه الحالِ ـ أن يكونَ أقربَ إلى ربِّه، منه في غيرِها مِن الأحوالِ؛ كما قال ﷺ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العبدُ إِلَى رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ...**» الحديثَ[1].

ثم إذا جلَسَ بين السجدتَيْنِ، يكونُ قد تمثَّل جاثيًا بين يدَيْ ربِّه، مُلقِيًا نفسَهُ بين يدَيْه، معتذِرًا إليه ممَّا جناه، راغبًا إليه أن يَغفِرَ له ويَرحَمَه، وقد كان النبيُّ ﷺ يكرِّرُ الاستغفارَ في هذه القَعْدةِ، ويُكثِرُ رغبتَهُ إلى اللهِ فيها.

ثم يسجُدُ، ثم يكرِّرُ هذه الأفعالَ، فإذا أكمَلَ صلاتَهُ، ولم يَبْقَ إلا الانصرافُ، شُرِعَ له الجلوسُ بين يدَيْ ربِّهِ، مُثنيًا عليه بأفضلِ التحيَّاتِ التي لا تصلُحُ إلا له، ولا تليقُ بغيرِه.

ثم يَعطِفُ عليها الصلواتِ، وكلُّها للهِ؛ فالتحيَّاتُ له مِلْكًا، والصلواتُ له عبوديَّةً واستحقاقًا، ثم الطَّيِّباتُ كذلك.

فكلُّ طَيِّبٍ مضافٌ إليه؛ وصفًا وفعلًا، وقولًا ونسبةً، وهي تتضمَّنُ تسبيحَهُ، وتحميدَهُ، وتكبيرَهُ، وتمجيدَهُ، والثناءَ عليه بآلائِهِ وأوصافِه.

فهذه الكلماتُ الطَّيِّباتُ ومعانيها له وحدَه، لا يَشرَكُه فيها غيرُه؛ كـ«**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**».

ثُمَّ شُرِعَ له أن يسلِّمَ على عبادِ اللهِ الذين اصطفى؛ فتحيَّةُ المخلوقِ تكونُ بعد تحيَّةِ الخالقِ، وقُدِّمَ في هذه التحيَّةِ أَوْلى الخلقِ بها، وهو النبيُّ ﷺ، ثم على نفسِهِ بعدَه، وعلى سائرِ عبادِ اللهِ الصالِحِينَ في الأرضِ والسماءِ، ثم بعد ذلك يجدِّدُ توحيدَهُ، فيَشهَدُ شهادةَ الحقِّ التي بُنِيَتْ عليها الصلاةُ، ثم بعد ذلك

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢)؛ مِن حديث أبي هُرَيْرة.

قبلَ أن يسلِّمَ، أُذِنَ له أن يَسأَلَ حاجتَهُ بعد تعظيمِهِ لربِّهِ وصلاتِهِ على رسولِهِ ﷺ.

فالتحيَّاتُ: أولُها حمدُ اللهِ، والثناءُ عليه، ثم الصلاةُ على رسولِهِ، ثم الدعاءُ آخرَ الصلاةِ.

ثم يَختِمُها بعد ذلك بذكرِ اسمِ اللهِ ﷻ، وهو السلامُ، ثم يستغفِرُ العبدُ ربَّه ﷻ، مِن تقصيرِهِ عمومًا، ومِن تقصيرِهِ خصوصًا في صلاتِهِ مِن عدَمِ إقبالِهِ الكاملِ على ربِّهِ ﷻ، ثم بعد ذلك يوحِّدُ ربَّهُ ويسبِّحُهُ ويَحمَدُهُ ويكبِّرُهُ؛ بل إنَّ الأذانَ الذي يَسبِقُ هذه الصلاةَ متضمِّنٌ لجميعِ العقيدةِ(١).

وأمَّا الركنُ الثالثُ، وهي الزَّكاةُ: فشأنُها عظيمٌ، وأمرُها كبيرٌ؛ ولذا عندما يُخرِجُ العبدُ زكاةَ مالِهِ للهِ تعالى ـ والمالُ مِن أعظمِ المحبوباتِ له ـ فهذا برهانٌ على إيمانِهِ؛ كما في «صحيح مسلم» (٢٢٣) مِن حديثِ أبي سلَّام، عن أبي مالكٍ الأشعريِّ؛ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانْ، وَالحَمْدُ للهِ تَمْلأُ المِيزَانْ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ للهِ تَمْلَآنِ** ـ أَوْ: **تَمْلأُ** ـ **مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ لَك أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**».

وقد كرَّر ربُّنا ﷻ في آياتٍ متتابِعةٍ أنَّ إنفاقَ المالِ لا بدَّ أن يكونَ خالصًا له تعالى؛ كما تقدَّم.

وأمَّا الصيامُ: فهو مبنيٌّ على إخلاصِ العبادةِ؛ بل هو مِن أظهرِ العباداتِ في ذلك؛ لأنَّه سِرٌّ بين العبدِ وربِّه، يترُكُ محبوباتِهِ وشَهَواتِهِ للهِ تعالى، وفي «صحيح البخاريِّ» (١٩٠٤)، و«صحيح مسلم» (١١٥١)؛ مِن حديثِ عَطَاءٍ، عن أبي صالح، عن أبي هريرةَ ﵁؛ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلَّا الصِّيَامَ؛ فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**...» الحديثَ.

وأمَّا الحجُّ: فشعارُهُ التوحيدُ: «**لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْك، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْك، إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكْ**».

---

(١) انتهى كلامُ ابنِ القيِّمِ بتصرُّفٍ.

وأعظمُ أركانِهِ: الوقوفُ بعَرَفةَ، والسُّنَّةُ في هذا اليومِ: الإكثارُ مِن دعاءِ اللهِ ﷻ، والتهليلِ، إلى مَغيبِ شمسِ هذا اليوم.

ولا يخفى أنَّ هذا ربطٌ للعبدِ بربِّه، وتعلُّقٌ به، وأنَّ عليه أن يتوجَّهَ في كلِّ حالاتِهِ إليه؛ فهذا كلُّهُ توحيدٌ عمَليٌّ يبيِّنُ معنى: «لا إلٰهَ إلا اللهُ».

ثانيًا: ما يتعلَّقُ بالعباداتِ الأخرى في يومِهِ وليلتِهِ؛ فالمسلِمُ يَبدَأُ يومَهُ بالتوحيدِ؛ فقد أخرجَ البخاريُّ (٦٣١٢) مِن حديثِ رِبْعِيِّ بنِ حِرَاشٍ، عن حُذَيْفةَ؛ قال: «كان النبيُّ ﷺ إذا أَوَى إلى فراشِهِ، قال: «**بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا**»، وإذا قام، قال: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**»؛ فيعتقِدُ أنَّ الموتَ والحياةَ بيدِ اللهِ تعالى وحدَهُ؛ فيَحمَدُ اللهَ ﷻ على ذلك بعدما يستيقِظُ.

ثم بعد ذلك: يذكُرُ أورادَ الصباحِ؛ ففي الحديثِ الصحيحِ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان إذا أصبَحَ، قال: «**أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الإِسْلَامِ، وَكَلِمَةِ الإِخْلَاصِ، وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَمِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٣٦٣) عن وكيع، والدارِمي (٢٧٣٠) عن محمَّد بن يوسف، والنَّسائي في «الكبرى» (١٠١٠٣) مِن طريق أبي داود الحَفَري، و(١٠١٠٤) مِن طريق قاسم بن يَزِيد الجَرْمي؛ جميعُهم عن سفيان الثوري، عن سَلَمة بن كُهَيْل، عن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أَبْزَى، عن أبيه، به.
ورواه يحيى بنُ سعيد، عن سفيان؛ واختُلِفَ عليه:
فأخرجه ابن أبي شَيْبة (٢٧٠٧١ و٢٩٨٨٧)، وأحمد (١٥٣٦٧)، وأخرجه النسائي في «الكبرى» (٩٧٤٣) عن عمرو بن علي؛ جميعهم (ابن أبي شَيْبة، وأحمد، وعمرو بن علي) عن يحيى بن سعيد، عن سفيان الثوري، به.
وأخرجه النَّسائي في «الكبرى» (٩٧٤٤) عن محمَّد بن بشَّار، عن يحيى بن سعيد، عن سفيان، عن سَلَمة بن كُهَيْل، عن ذَرٍّ، عن ابن عبد الرحمٰن بن أَبْزَى، عن أبيه، به.
وكذا رواه شُعْبة، عن سَلَمة، به.
وكلا الإسنادَيْنِ جيِّدانِ، ولكنَّ روايةَ الثوريِّ أصحُّ؛ لأنه أحفَظُ من شُعْبة. وقد صحَّحه النوَوي في «الأذكار» (٢٣٤)، وحسَّنه ابن حجَر في «نتائج الأفكار» (٢/ ٤٠١).

و«**فِطْرَةُ الإسلامِ**»: هي التوحيدُ؛ فقد فطَرَ اللهُ عبادَهُ على ذلك.

و«**كلمةُ الإخلاصِ**»: هي شهادةُ أنْ لا إِلٰهَ إلا اللهُ.

و«**دينُ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ**»: هو الإسلامُ؛ أي: إسلامُ الوجهِ للهِ ﷻ، والانقيادُ له بالطاعةِ، والبراءةُ من الشركِ وأهلِه.

ولم يكتفِ بهذا، حتى أكَّده بأنَّه أصبحَ على مِلَّةِ أبينا إبراهيمَ حنيفًا مسلِمًا وما كان مِن المشرِكين.

وفي المساءِ: يقولُ مثلَ ذلك.

وفي الحديثِ الآخَرِ الذي أخرجه البخاريُّ في «صحيحِه» (٦٣٠٦) عن شدَّادِ بنِ أَوْسٍ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ؛ أنَّه قال: «**سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**»، قال: «**وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**».

وهذا كلُّه توحيدٌ وإقرارٌ بالعبوديَّةِ مِن قِبَلِ العبدِ لِرَبِّهِ ﷻ، واعترافٌ بنعمِهِ وآلائِهِ عليه، وإقرارٌ منه بذنوبِهِ، وطلَبٌ للمغفرةِ مِن ربِّه ﷻ.

وفي الحديثِ الآخَرِ: «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**»(١).

---

(١) أخرجه النَّسَائي في «الكبرى» (١٠٣٣٠)؛ وفيه ضعفٌ مِن طريقِ زيد بن الحُبَاب، عن عثمان بن مَوْهَب، عن أنس، وقد صحَّحه الحاكم في «المستدرَك» (١/ ٥٤٥)، والمنذِري في «الترغيب» (١/ ٢٦٠)، والضياء في «المختارة» (٦/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢)، وحسَّنه ابن حجر «نتائج الأفكار» (٢/ ٤٠٧)؛ وإسنادُهُ صالحٌ، لكنه غريبٌ جدًّا.
فالحديثُ تفرَّد به زيد بن الحُبَاب، عن عثمان بن مَوْهَب؛ قال: «سمعتُ أنسًا»، ووقَعَ عند الحاكم: عن عثمان بن عبد الله بن مَوْهَب، وعثمانُ بنُ عبد الله بن مَوْهَب هو التَّمِيميُّ مولاهم، خرَّج له الشيخان وغيرهما، وهو ثقة؛ ولذا صحَّحه الحاكم على شرط الشيخَيْن، وأمَّا الباقون، فوقَعَ عندهم عثمانُ بنُ مَوْهَب، ووقَعَ في بعض =

= المصادر: الهاشِمي، وفي بعضها: مولى بني هاشِم؛ ولذا فرَّق بينهما غيرُ واحد من أهلِ العلم؛ فقالوا: «إنَّ هذا مولًى لبني هاشم، خلافَ الآخر؛ فإنه مولًى لبني تميم، وإنَّ هذا كوفيّ، والآخَرَ مدَني، وإنَّ هذا ابنُ مَوْهَب، والآخر: ابنُ عبدِ اللهِ بنِ مَوْهَب».

قلت: واحتمالُ أنهما واحدٌ لا يُستبعَدُ، وإن كان الأقرَبُ التفريقَ لما تقدَّم؛ فقد يكونُ زيدُ بنُ الحُبَاب نسَبَهُ إلى جَدِّه، وكلاهما مولًى، وقد يكونُ ـ إنْ قلنا: إنهما واحدٌ ـ مولًى لبني تميم، ثم اشتراه بنو هاشم، أو العكسَ، وهناك جمعٌ مِن الرواةِ اختُلِفَ في وَلَائهم لمن؟

ومما قد يُستدَلُّ على كونِهما واحدًا: أنَّ التميميَّ لم يُذكَرْ له راوٍ إلا زيدُ بنُ الحُبَاب، ووجهُ الاستدلالِ: أنه لو كان غيرَ الآخَرِ، لَرَوَى عنه غيرُ زيد بن الحُبَاب، وإنْ كان كلُّ هذا لا يَلزَم؛ لأنَّ هناك جمعًا من الرواة لم يَرْوِ عنهم إلا واحدٌ، وهذا نوعٌ مِن القرائنِ التي يُستدَلُّ بها على كونِهما واحدًا؛ ولكنَّ هذا كلَّه لا يكفي في كونِهما واحدًا، وقرائنُ التفريقِ بينهما أقوى؛ فيتأكَّدُ بذلك أنَّ الهاشميَّ غيرُ التميميّ.

وهناك ثلاثةُ أشياءٍ تدُلُّ على التفريقِ بينهما؛ وهي:

أ ـ اختلافُهما في الاسم: فأحدُهما ابنُ مَوْهَب، والآخَرُ ابنُ عبدِ اللهِ بنِ مَوْهَب.

ب ـ الاختلافُ في النِّسْبَةِ: فأحدُهما هاشميٌّ بالوَلَاء، والآخَرُ تميميٌّ بالوَلَاء.

جـ ـ أحدُهما كُوفيّ، والآخَرُ مدَني.

وأمَّا ما وقَعَ عند الحاكم مِن تسميتِهِ بابنِ عبدِ اللهِ بنِ مَوْهَب، فهذا قد يكونُ مِن أحدِ الرواةِ، ولعلَّه الحاكمُ؛ لأنَّ في جميعِ المصادرِ لم يُنسَبْ إلا عند الحاكم، ولا يخفى أنَّ بعضَ المصنِّفينَ مِن الحفَّاظِ قد ينسُبُونَ الراويَ مِن بابِ التبيينِ لهذا الراوي، وقد يحصُلُ في حالاتٍ نادرةٍ خطأٌ في نسبةِ الراوي، والهاشميُّ هذا ليس بالمشهورِ، وفيه جَهَالةٌ، وهو مُقِلٌّ، وليس له إلا هذا الحديثُ عند النَّسَائيّ، ولم يخرِّجْ له أحدٌ مِن أصحابِ الكتبِ الستةِ سوى النَّسَائيّ، وذكَره ابنُ حِبَّانَ في «الثقات»، وقال أبو حاتم الرازيُّ: «صالحُ الحديث»؛ وهذا تقويةٌ منه فيما يَظهَرُ بحديثِه؛ وعلى هذا: فإسنادُ هذا الخبرِ صالحٌ، ولكنَّه غريبٌ جدًّا.

وقد جاء مِن طريقِ أنسٍ أكثَرُ مِن حديثٍ في الأذكارِ والدعَواتِ بذكرِ الحيِّ القيُّوم:

منها: ما أخرجه النَّسَائيُّ في «عمَل اليوم والليلة» (٦/ ١٧٥) مِن حديثِ قَتَادةَ، عن أنس، وسليمانَ التيميِّ، عن أنسٍ، ولفظُ قتادةَ: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يدعو: «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ**...»»؛ ولفظ سليمانَ: «كانَ مِن دعاءِ النبيِّ ﷺ: «**أَيْ حَيُّ، أَيْ قَيُّومُ**»».

ومنها: ما أخرجه أبو داود (١٤٩٥)، والنَّسَائي (١٣٠٠)؛ مِن حديث حَفْص ابن أخي أنسٍ، عن أنسٍ؛ أنَّ رجلًا قال: «اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلا أَنْتَ، =

ومنها: ما رواه أبو داودَ (٥٠٧٣)، والنَّسائيُّ في «الكبرى» (٩٧٥٠)، وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ (٨٦١)[1]؛ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ: «اللَّهُمَّ، مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ، أَوْ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِك، فَمِنْك وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَك؛ فَلَك الحَمْدُ، وَلَك الشُّكْرُ»، فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ يَوْمِهِ، وَمَنْ قال مِثْلَ ذَلِك حِينَ يُمْسِي، فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ لَيْلَتِهِ**».

فاعتبِرْ مِن هذا الحديثِ العظيم: كيف يكونُ توحيدُ العبدِ وإخلاصُهُ للهِ تعالى؟ وذلك باعترافِ العبدِ أنَّ ما به مِن نِعْمةٍ أو بأحدٍ من خلقِه، فهي مِن اللهِ وحدَهُ لا شريكَ له، وبعد اعترافِهِ بذلك وإقرارِه: يَحمَدُ اللهَ، ويشكُرُهُ على ذلك.

ومِن الحكمةِ في ذلك التكرارِ: أنَّ الخلقَ كثيرًا ما يغفُلُونَ عن شكرِ اللهِ ﷻ، حينما يُنعِمُ عليهم بالنعمةِ، فيشكُرُونَ مَن تسبَّب بها لهم، ويَنسَوْنَ اللهَ ﷻ الذي قدَّرها وساقَها إليهم، وجعَلَها على يدِ بعضِ عبادِهِ، وقد تكفَّل لهم بتيسيرِها.

وإذا جاء الليلُ، جدَّد توحيدَهُ لربِّه، وإخلاصَ العبادةِ له؛ فمِن أذكارِ الليلِ ـ وهي غيرُ أذكارِ المساءِ ـ: قراءةُ «سورةِ الإخلاصِ»؛ ففي «صحيحِ

= المَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، يَا ذَا الجَلالِ وَالإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ»؛ فقد تكونُ هذه الأحاديثُ أصلَ حديثِ أنسٍ الذي مِن طريقِ زيدِ بنِ الحُبَاب، ويكونُ الراوي قد أخطأَ أو رواهُ بالمعنى.

وقد يكونُ حديثُ زيدِ بنِ الحُبَابِ حديثًا آخَرَ مستقِلًّا عنها ـ وهو الأقربُ ـ لأنَّ سياقَ هذا الحديثِ مختلِفٌ، وفيه ذكرٌ لفاطمةَ، وأنه قد أوصاها بهذا الدعاءِ، وإنْ كان في النَّفْسِ مِن ذلك شيءٌ.

(١) مِن طريقِ عبد الله بن عَنْبَسة، عن عبد الله بن غَنَّام البَيَاضِي، مرفوعًا.
ووقَعَ عند ابن حِبَّان (٨٦١): «عبد الله بن عبَّاس»، بدَلَ: «عبد الله بن غَنَّام»؛ وهو خطأ. [ينظر: «تحفة الأشراف» (٦/ ٤٠٤)، و«توضيح المشتبه» (٦/ ١٨٦ ـ ١٨٧)].
وعبدُ اللهِ بنُ عَنْبَسةَ مجهول. [ينظر: «تاريخ ابن معين» (٣/ ١٨٣/ رواية الدوري)، و«الجرح والتعديل» (٥/ ١٣٢ ـ ١٣٣ و٩/ ٣٢٥)، و«ميزان الاعتدال» (٢/ ٤٦٩)].
والأقرَبُ: أنَّ هذا الحديثَ إسنادُهُ صالح.

مسلم» (٨١١) مِن حديثِ أبي الدَّرْداءِ، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: **«أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ القُرْآنِ؟!»**، قالوا: «وكيف يقرأُ ثُلُثَ القرآنِ؟!»، قال: **«﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ»**.

وآخَرُ أيضًا (٨١٢) مِن حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه؛ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **«احْشُدُوا؛ فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ القُرْآنِ»**، فحشَدَ مَن حشَدَ، ثُمَّ خرجَ نبيُّ اللهِ ﷺ، فقرأَ: **«﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾»**، ثم دخَلَ، فقال بعضُنا لبعضٍ: «إنِّي أُرَى: هذا خَبَرٌ جاءَهُ مِن السماءِ»[1]؛ فذاك الذي أدخَلَه، ثُمَّ خرجَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، فقال: **«إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ: «سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ القُرْآنِ»؛ أَلَا إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ»**.

وهكذا إذا أراد أن ينامَ، جدَّد إخلاصَهُ وعبوديَّتَهُ لربِّه؛ فيقولُ ـ كما جاء في «البخاريِّ» (٢٤٧)، و«مسلم» (٢٧١٠)، عن البَراءِ بنِ عازبٍ؛ أنَّ النبيَّ ﷺ أوصى رجلًا، فقال: **«إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلِ: «اللَّهُمَّ، أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ؛ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»**؛ فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ، فَأَنْتَ عَلَى الفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ».

بل حتى إذا تَعارَّ مِن الليلِ، يجدِّدُ إيمانَهُ وتوحيدَهُ؛ ففي «صحيحِ البخاريِّ» (١١٥٤) مِن حديثِ جُنادةَ بنِ أبي أميَّةَ، عن عُبادةَ بنِ الصامتِ، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: **«مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الحَمْدُ للهِ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، واللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ»، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»، أَوْ دَعَا، اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى، قُبِلَتْ صَلَاتُهُ»**.

وهكذا عند أكلِهِ وشربِهِ، فإذا ابتدَأَ، يقولُ: «باسمِ اللهِ»، وإذا انتهى، يَحمَدُ اللهَ، وإذا خرَجَ مِن بيتِهِ، قال: **«باسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا**

---

(١) هذا لفظُ مسلمٍ، والذي في التِّرمذيِّ: «إِنِّي لَأَرَى هَذَا خَبَرًا جَاءَهُ مِنَ السَّمَاءِ».

قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فيُقَالُ لَهُ: «كُفِيتَ، وَوُقِيتَ»، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ»[(١)].

وإذا دخَلَ إلى بيتِهِ؛ فالمشروعُ له: أن يذكُرَ اسمَ اللهِ؛ كما جاء في «صحيح مسلم» (٢٠١٨) مِن حديثِ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ؛ أنَّه سَمِعَ النبيَّ ﷺ يقولُ: **«إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: «لَا مَبِيتَ لَكُمْ، وَلَا عَشَاءَ»، وَإِذَا دَخَلَ، فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قال الشَّيْطَانُ: «أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ»، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ: «أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ وَالْعَشَاءَ»**.

وإذا ذهَبَ إلى قضاءِ الحاجةِ؛ فالمشروعُ له أن يستعيذَ باللهِ مِن الشياطينِ؛ ذُكْرانِهم وإناثِهم؛ كما في «الصحيحَيْنِ» مِن حديثِ أنسٍ[(٢)].

وإذا خرَجَ، سأل اللهَ تعالى مغفرتَهُ؛ كما في «سننِ أبي داودَ»، وغيرِهِ، مِن حديثِ عائشةَ[(٣)].

بل إنَّه إذا أراد أن يأتيَ أهلَهُ، ذكَرَ اللهَ تعالى؛ قال البخاريُّ في «كتابِ: الوضوءِ»، (بابِ: التسميةِ على كلِّ حالٍ، وعندَ الوِقَاعِ) (١٤١)، ثم ساق مِن طريقِ سالمِ بنِ أبي الجَعْدِ، عن كُرَيْبٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ، يبلُغُ به النبيَّ ﷺ؛ قال: **«لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ، قَالَ: «بِاسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ، جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا»، فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ، لَمْ يَضُرَّهُ»**[(٤)].

وكذا في حالِ الشِّدَّةِ: عليه أن يُكثِرَ مِن ذكرِ اللهِ تعالى؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٤٥﴾ [الأنفال: ٤٥].

ولو استرسَلْنا في ذكرِ الأدلَّةِ، لطال بنا المَقَامُ؛ فلو أنَّ الناسَ تدبَّروا ذلك، لاستقام لهم توحيدُهم، وحقَّقوا العبوديَّةَ لربِّهم، وعرَفُوا معانيَ ذلك حقَّ المعرِفةِ، وابتعَدُوا عمَّا يضادُّ ذلك كلَّه؛ لأنَّ هذه العباداتِ والأذكارَ والأورادَ

---

(١) أخرجه التِّرْمِذي (٣٤٢٦)؛ مِن حديث أنس بن مالك؛ وهو حديثٌ حسَنٌ، له ما يَشهَدُ له.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٢)، ومسلم (٣٧٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٠)، والتِّرْمِذي (٧)، والنَّسائي في «الكبرى» (٩٨٢٤)، وابن ماجه (٣٠٠).

(٤) بضمِّ الراءِ وفتحِها مشدَّدةً. ينظر: «فيض القدير» (٥/٣٠٧).

مستغرِقةٌ لجميعِ وقتِ الإنسانِ؛ في يومِهِ وليلتِهِ؛ بل في عُمُرِه كلِّه، حتى ينزِلَ به الموتُ؛ ففي «صحيح مسلم» (٢٦) مِن حديثِ عثمانَ؛ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، دَخَلَ الجَنَّةَ»**.

وفي «صحيح مسلم» (٩١٧) مِن حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه؛ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **«لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»**.

ولذا كان رسولُ اللهِ ﷺ وهو على فِراشِ الموتِ يحذِّرُ أمَّتَهُ مِن الشركِ، ومِن اتِّباعِ اليهودِ والنصارى.

فتبيَّن ممَّا تقدَّم: أنَّ الشارعَ قد بيَّن لنا بأتمِّ بيانٍ، وأظهرِ برهانٍ، معنى الإلٰهِ، وحقيقةَ العبادةِ؛ ولأجلِ هذا قال المشرِكونَ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥].

وفي «صحيح البخاريِّ» (٧) في قِصَّةِ هِرَقْلَ[1] مع أبي سفيانَ، عندما سأله ـ وذلك قبل أن يُسلِمَ أبو سفيانَ ـ قال: «ماذا يأمُرُكم؟»، قال: يقولُ: **«اعبدُوا اللهَ وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ...»** الحديثَ.

فلم يَخْفَ على أبي سفيانَ ـ وهو في حالِ الشركِ ـ حقيقةُ دعوةِ الرسولِ ﷺ.

هذا مع ملاحَظةِ أربعةِ أمورٍ:

أولًا: أنَّ اللهَ تعالى خاطَبَ عبادَهُ وهم في عالَمِ الذَّرِّ؛ في أصلابِ آبائهم، وأشهَدَهم على أنفسِهم، وأخَذَ عليهم العهدَ والميثاقَ؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۝١٧٢ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝١٧٣ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝١٧٤﴾ [الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٤].

ثانيًا: أنَّ اللهَ عز وجل قد فطَرَ العبادَ على التوحيدِ؛ قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الروم: ٣٠].

---

(١) «هِرَقْلُ»: مَلِكُ الرومِ؛ فيه لغتانِ: أكثرُهما: «هِرَقْلُ» بفتحِ الراءِ، وسكونِ القافِ؛ مثال: «دِمَشْقَ». والثانيةُ: «هِرْقِلُ» بسكونِ الراءِ، وكسرِ القافِ؛ مثال: «خِنْصِر». ينظر: «المصباح المنير» (٢/ ٦٣٦).

وفي «البخاريِّ» (١٣٥٨)، و«مسلم» (٢٦٥٨)؛ مِن حديثِ أبي هُرَيْرَةَ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا وَيُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ**...» الحديثَ.

وفي «صحيح مسلم» أيضًا (٢٨٦٥)؛ مِن حديثِ عِيَاضِ بنِ حِمَارٍ المجاشِعيِّ؛ أنَّ رسولَ اللهِ قال ذات يوم في خُطْبتِهِ: «**أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ، فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا**».

ثالثًا: أنَّ اللهَ ﷻ قد حَفِظَ دِينَهُ مِن التحريفِ والتبديلِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

ويَلزَمُ مِن ذلك حِفْظُ السُّنَّةِ النبويَّةِ التي تفسِّرُ القرآنَ، وهذا بخلافِ الأممِ السابقةِ؛ فمِن أسبابِ ضلالِهم، ووقوعِهم في الشركِ والكفرِ: هو التحريفُ والتبديلُ الذي وقَعَ لكُتُبِهم؛ قال حسَّانُ بنُ عطيَّةَ: «كان جبريلُ عليه السلام ينزِلُ على رسولِ اللهِ بالسُّنَّةِ، كما يَنزِلُ عليه بالقرآنِ، ويعلِّمُهُ إيَّاها، كما يعلِّمُهُ القرآنَ»(١).

رابعًا: أنَّ مِن رحمةِ اللهِ ﷻ التي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ: أنْ هيَّأَ لعبادِهِ مَن يبيِّنُ لهم الحَقَّ ويَهدِيهم صراطَهُ المستقيمَ، بما أورَثَهم مِن كتابِهِ وسُنَّةِ نبيِّهِ ﷺ، فهداهم لِيَهْدِيَ بهم مَن شاء مِن عبادِه، وأخَذَ عليهم العهدَ والميثاقَ، ببيانِ ما أورَثَهم مِن العلمِ والهدى؛ كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وجعَلَهم مَرجِعًا عند الاختلافِ وتنازُعِ الحقِّ أو جهلِهِ؛ فقال سبحانه: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧]؛ وباللهِ التوفيقُ.

كتبه

عبد الله بن عبد الرحمٰن السعد

١٤٣٠/١١/٢٦هـ

---

(١) أخرجه الدارمي (٦٠٨) عن محمَّد بن كَثِير، والمَرْوَزي في «السُّنَّة» (١٠٤) مِن طريق عيسى بن يونس؛ كلاهما عن الأوزاعي، عن حَسَّان بن عطيَّة، به؛ وإسناده صحيح.